

قافلة الزيت

ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (فبراير/مارس ١٩٧٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الرابع المجلد السابع والعشرون

تصدر شهرياً عن شركة ارامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

توزع مجاناً

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

• جميع المراسلات باسم رئيس التحرير .
• كل ما ينشر في قافلة الزيت يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ولا يعبر بالضرورة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها .
• تجوز اعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر .
• لا تقبل القافلة الا المواضيع التي لم يسبق نشرها .

المدير العام : فيصل محمد البسام • المدير المسؤول : إسماعيل إبراهيم نواب • رئيس التحرير : عبدالله حسين الغامدي • المحرر المساعد : عوني أبو كشك



صورة الغلاف :
يعتبر الدهان من أكثر أعمال الصيانة اللازمة للسفن بشكل عام . ويتم ذلك من قبل فنيين وبأدوات متطورة .

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. DAMMAM

مع العربية في مساقها التاريخي

من تجربة الشعر إلى الوحي

بقلم : الدكتور نقولا زيادة

ان الشعوب التي استعملت اللغات السامية بدأت ، في الألف الرابع قبل الميلاد على أقل تقدير ، تغذي الثقافة العالمية بنتاجها الأدبي والعلمي فقد ظهرت فيها أساطير تعبر عن أشواق الانسان وآماله وأمانيه ، وأنتجت أدياناً ، وثنية وموحدة ، واختيرت احداها العربية ، أداة للوحي الذي نزل على النبي قرآناً كريماً ، ودونت فيها الشرائع من زمن حمورابي على الأقل ، وكتبت فيها علوم فلكية ورياضية على ما ظهر من الإجراءات البابلية وغيرها ، واحتوت شعراً أنيقاً لطيفاً . ومع أن بعض هذه اللغات قد مات بحيث لا يعرفه اليوم إلاّ المتخصصون في دراساتها ، فآثارها لا تزال معروفة . وبحكم الاتصال المستمر ، زماناً ومكاناً ، بين هذه الشعوب انتقلت الآراء والصور من بقعة الى أخرى ومن شعب الى آخر ومن أدب الى أدب وهذه قصة الخليقة البابلية ، على سبيل المثال ، تشبه قصة الخليقة على ما وردت في سفر التكوين من العهد القديم . وقصة غلغامش لها صور بابلية قديمة وفينيقية تعاصرها أو تلحق بها في الزمن قليلاً .

واللغات السامية انتشرت أصلاً في الرقعة التي تشغل اليوم شبه الجزيرة العربية وديار الشام والعراق ، مع العلم بأنه كان لها امتداد الى الحبشة على الأقل ، وليس بين الباحثين أي اتفاق على أي من هذه اللغات هي اللغة الأم ، ولكن ذلك ليس أمراً هاماً ولكن الباحثين يتفقون على تقسيم اللغات السامية الى قسمين : شرقية وغربية . والشرقية منها يدخل في عدادها البابلية والأشورية . أما الغربية فشمالية منها تشمل الكنعانية والفينيقية والآرامية والعبرية ، فيما تشمل الجنوبية منها : العربية والعربية الجنوبية التي منها السبأية والمعينية والحضرمية والحبشية . وهذه في الواقع لهجات أكثر منها لغات متباينة مختلفة .

وهذه اللغات السامية لها خواص تتفق فيها معظمها ، ان أصول الكلمات ، أو أكثرها على الأقل ثلاثية في أصلها ، وتتكون من ثلاثة حروف هي الفاء والعين واللام ، وان كان فيها كلمات ثنائية الأصل فعل يضاف الى أوله أو وسطه أو آخره حرف أو أكثر فتتكون من الكلمة الواحدة صور مختلفة تدل على معان مختلفة . وتتشابه هذه اللغات في تكوين الأسماء والأفعال . وفي اللغات السامية تشابه في أنواع الضمائر . فكل فيها متكلم ومخاطب وغائب ، وان كان بعض اللغات خسر واحداً من هذه

الضمائر مع الزمن . وهذه الضمائر تتصل مع الأفعال . وثمة شبه آخر بين هذه اللغات وهي أنها كلها فيها زمنان رئيسيان للفعل ، التام والناقص أو الماضي والمستقبل . واللغات السامية فيها وفرة في كلماتها كما أنها مطردة في قياسها ومخارج الحروف فيها واضحة . وتتشابه اللغات السامية بتغير الحركات في وسط الكلمات ، وبتغيرها يتغير المعنى ويتنوع .

ويبدو أن هذه اللغات أو اللهجات السامية التي وصلت الينا أخبارها وآثارها أو تلك التي لا تزال حية مستعملة الى الآن ، هي في واقع الأمر نتيجة لامتزاج بين لهجات أخرى حدث في عصور مختلفة . بحيث أن لهجتين قد تندمجان تدريجياً ويتكون من ذلك لهجة واحدة . وهكذا فان اللغات السامية كانت تتغلب الواحدة على الأخرى فتنزوي المغلوبة اما نهائياً أو لفترة من الزمن . فالكنعانية والفينيقية والبابلية والاشورية زالت . وقد جاء وقت تغلبت فيه الآرامية على اللغة العبرية ، بحيث أن جميع السكان في أجزاء من بلاد الشام ، بما في ذلك عدد كبير من اليهود ، كانوا يتكلمون الآرامية فقط . وظلت العبرية لغة الشؤون الدينية فقط .

واللغة العربية لها صفات تمتاز بها وقد حافظت عليها . فمنها انها لغة معربة . واعرابها مكن لمستعمليها أن يتلاعبوا بتركيب الجمل بحيث يمكنهم ان ينوعوا الاسلوب وترتيب الكلمات . فكان هذا يعطيها ، في كثير من الأحيان ، رونقاً خاصاً ، وان كان يضيف الى صعوبة استعمالها وتعلمها . ومن خصائص العربية كثرة المترادفات فيها . والباحثون في هذا الموضوع متفقون على أن ذلك يرجع الى اندماج لهجات مختلفة ببعضها البعض . فاحتفظت اللهجة أو اللغة الناتجة عن ذلك بأكثر من كلمة واحدة لمسمى واحد ، أو لفكرة مجردة واحدة . ولا شك أن هذا كان مما يسّر للعربية أن تتجمل وتتأنق وتتبرج ، وان يتمكن أهلها من التحرر في التعبير .على أن خطراً قد يكمن في مثل هذه الحالة اذا كان الكاتب لا يدرك الفروق التي قد توجد بين المترادف والمتوارد . فالترادف ، في أغلب الحالات ، قد أصبح يؤدي معاني مختلفة بالنسبة الى هذه الكلمات .

وللعربية ميزة أخرى وهي الاشتقاق . فالكلمة الواحدة ، عن طريق توسعها داخلياً ، تستطيع أن تزيد في ثروة المفردات . ولعل خير مثل يقدم على ذلك ، وهو يقدم للتذكير فقط ، هو المزيدات في الأفعال . فزيادة حرف في مكان ما ، يؤدي الى تنوع المعنى . لكن الاشتقاق في اللغة أوسع من هذا مدى وأبعد في تكوين المفردات الجديدة أثراً .

واللغة العربية ، حتى قبل الاسلام ، كونت لها شخصية خاصة . ففي ألفاظها موسيقى وفي أوزانها دقة وفي النطق بها جرْس ولها في الأذن وقع . وكانت قد وصلت في تراكيبها الى درجة كبيرة من البلاغة ، كما أن قواعدها قد اكتسبت تنسيقاً منطقياً ، هذا بقطع النظر عن الاستثناءات .

واللغة ، من حيث الاستعمال ، أداة يعبر بها الأفراد والجماعة عما يختلج في النفوس وتضطرب به القلوب وتتأمله العقول . وقد يكون التعبير شعراً كما يكون نثراً ، وصلاحية اللغة ، أي لغة ، تتوقف على الشعب الذي يستعملها . ففي القرن العشرين توجد لغات بدائية لأن الشعوب التي تنطق بها بدائية في حياتها وتفكيرها . أما بالنسبة للغات السامية فليس لدينا شيء عن الدور البدائي الذي عاشته الشعوب التي اتخذت تلك اللغات أداة للتعبير . ذلك بأن الذي وصل الينا من اللغات التي اندثرت جاءنا مكتوباً أو منقوشاً ، أي بعد اختراع الكتابة . واختراع الكتابة بحد ذاته دليل على تقدم كبير في حياة الشعوب .

وهذه المدونات التي كشف عنها التنقيب الأثري ، والتي تخص اللغات السامية المندثرة ، ذات محتوى هام . وبين محتوى واحدة من تلك اللغات وأخرى فروق ، وذلك بأن المحتوى يتوقف على اختلاف التجربة الثقافية والحضارية التي مر بها ذلك الشعب الذي استعمل اللغة . ومحتويات اللغات السامية تظهر درجة متقدمة من الثقافة والحضارة وغنى في الأدب . والفروق في المحتويات هي فروق واختلافات من حيث الدرجة والمدى . ومثل هذه الفروق تبدو واضحة لدى دراسة الآجرات البابلية والآشورية ومخلفات الحضارة الفينيقية من جهة ودراسة الأدب السرياني القديم من جهة أخرى .

في العصور السابقة للاسلام ، والقريبة منه نسبياً ، قامت في شبه الجزيرة العربية دول كان لها بالعالم الخارجي اتصال ، وكانت لها بلاطات فيها الكثير من الأدب . وكانت الجزيرة العربية تعرف الكثير من الأسواق التي كان يؤمها التجار لبيع سلعهم ، كما كان يقصدها الشعراء في أحيان كثيرة للتفاخر . فمن الدول التي كانت في الجنوب ، مثلاً ، سبأ وحمير ، حتى لا نعود الى فترات أوغل في التاريخ فنتحدث عن معين وقتبان وما اليهما . وفي الشمال كانت هناك مواطن المناذرة في الحيرة ومنازل غسان في مشارف الشام ، وتدمر بين الشام والعراق .

هذا الى منازل كندة في الوسط . ولسنا نريد أن نتحدث عن تاريخ هذه الدول أو البقاع ، ولا أن نفصل مآتيهـا الحضارية والأدبية ، ولكننا نذكر هذا لنقول بأن العرب لم يكونوا معزولين بالقدر الذي يصر عليه بعض الكتاب . واذا تذكرنا أن جاليات يهودية ونصرانية كانت مستقرة في بعض مناطق الجزيرة ، أدركنا أن الاتصال لم يكن تجارياً أو عسكرياً فحسب ، ولكنه كان روحياً أيضاً .

ولم يكن بد من أن تتأثر العربية كلغة بكل هذه ، خاصة وان بعض ما روي من الشعر انما وجد مقامه وأثر سماعه في هذه البلاطات وفي الأسواق .

والتراث الأدبي الذي وصلنا من العصر الجاهلي ، على قلته ، كان تعبيراً عما كان يصطرع في نفوس القوم وما يعتمل في أذهانهم وما تختلج به صدورهم وتضطرم به قلوبهم . ويبدو من النظر فيه أن الشعر يغلب فيه على النثر . ولعل ذلك يرجع الى أن الشعر الى الحفظ أسرع ، وعلى اللسان أروج ، وهذا التقليد الأدبي الذي نشير اليه يرجع في أصله الى القرن السادس للميلاد عـلى الغالب .

ولسنا نبغي في هذا الحديث أن نوغل في الابحاث المتعلقة بنوع الشعر وأصله . ولكن لا بد من الاشارة الى أن الشعر الجاهلي في أصله كان مقطوعات قصيرة تصف الطبيعة والحياة . ولكن في القرن السادس على أرجح الآراء ، تبدل هذا كله وظهرت القصيدة التي كانت تطوراً كبيراً من حيث فنها أولاً ، وتعدد الموضوعات التي تعالجها ثانياً .

وأكثر الشعر الذي وصل الينا من تلك الأزمنة يكاد يكون محصوراً ، من حيث رقعته ، بالمنطقة الشمالية الشرقية الواقعة بين الحجاز والخليج العربي . وقد يكون معنى هذا أن اللغة العربية الشمالية التي كانت ذات قوة وسلطان ، كانت تبتلع اللهجات الجنوبية المنتقلة اليها مع عـرب الجنوب ، بحيث أصبحت هي اللغة التي استعملت للتعبير عن حاجات النفس أكثر من أي لهجة عربية أخرى .

سبيل توضيح هذه التجربة اللغوية نود أن نأخذ المعلقات نقطة انطلاق ، وليس المهم أن نصرف وقتنا في الدوران حول تسمية هذه الآثار الشعرية الرفيعة ، ولا أن نضيع الجهد في تقرير عددها أستاً كانت أم سبعاً أم عشراً . ولكن الذي يجب أن ينصرف اليه علماء اللغة ومؤرخو الأدب هو الغوص في داخل هذه القصائد لاستخراج نوع التجربة الشعرية أو ، اذا أردنا أن نستعمل كلمة شاعت وذاعت مؤخراً ، قلنا المعاناة الشعرية .

صحيح أن أكثر هذه القصائد لها بناء معين يكاد يكون متسقاً فيها كلها بدءاً من مناجاة الاطلال الى وصف الناقة أو الفرس الى بقية الأمور . وهذا البناء المتشابه كان أحد الأسباب التي حملت بعض النقاد على اعتبار هذا الشعر ، أو أكثره أو بعضه منحولاً . ولكننا نود أن نذكر أنفسنا أن الكثيرين ممن قالوا بذلك في العصور الحديثة لم يعرفوا البوادي والقفار التي عاش فيها الشعراء والتي نظم الشعر فوقها . فأنت تسير ساعات في السيارة أو أياماً على ظهر البعير ، فلا يتغير المنظر أمامك . هذه الاستمرارية في الأرض والجو هي التي جعلت هذا البناء يظهر بهذا الشكل . فالقصيدة كانت نتيجة هذه العوامل الطبيعية جمعـاء .

ومن المهم أن نذكر أيضاً أن هذه القصيدة الطويلة ، أو المعلقة ان كان البعض يفضل هذه التسمية ، كانت متنوعة الموضوعات ، وكان الموضوع الرئيسي في كل منها يختلف عن الأخرى . فمن قال ان الموضوع الرئيسي في قصيدة امرىء القيس هو نفسه في قصيدة زهير بن أبي سلمى ؟ ومن اعتبر ان ما رمى اليه عنترة في معلقته هو ما رمى اليه لبيد؟ صحيح ان كلاً من هذه القصائد فيها فخر ، ولكن حتى الفخر كان الدافع اليه مختلفاً . والا فهل كان فخر عمرو بن كلثوم مثل فخر عنترة أو لبيد؟ عنتـرة يفخر ليزيل عنه وصمة الرق واللون ، وعمرو بن كلثوم يهدد عمروا بن هند . وامرؤ القيس يفخر بشيء وزهير ابن أبي سلمى يتحدث عن الحلم ، ولعله كان يفخر بذلك .

أترى لأننا نعتقد أن المعاناة الشعرية وقف على فئة أو زمن نحرم هؤلاء الشعراء من حقهم بأن يكون شعرهم نتيجة لانفعالات أو تأملات أو خيبة آمال أو خسارة حبيب أو مـال أو مجد ؟

هذا امرؤ القيس يصف يوماً من أيام عزه فيقول :

ألا ربّ يـوم لك منهنّ صـالح
ولا سيّما يوم بـدارة جلجـل
ويوم عقرت للعذارى مطيـتي
فيا عجباً مـن كورها المتحمّـل
فظـل العذارى يرتمين بلحمهـا
وشحم كهداب الدمقس المفتـل
تدار علينـا بالسديف صحافهـا
ويؤتى الينـا بالعبيط المثمّـل

وهذا زهير بن أبي سلمى يقول :

سئمت تكاليف الحيـاة ومن يعش
ثمانين حـولا لا أبا لك يسـأم
واعلم ما في اليـوم والأمس قبلـه
ولكنني عن عـلم ما في غد عـم

رأيت المنـــايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطيء يعمر فيهـــرم
ومن لم يصـــانع في أمـــور كثيرة
يضرس بأنيـــاب ويوطأ بمنسـم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفـــره ومن لا يتـــق الشتم يشتم

وعمرو بن كلثوم عندما يتهدد ويتوعد في قوله :

وقـــد علم القبائل من معـــدّ
اذا قبـــب بأبطحهـــا بنينـــا
بأنـــا المطعمـــون اذا قدرنـــا
وانـــا المهلكـــون اذا ابتلينـــا
وانـــا المانعـــون لمـــا أردنـــا
وانـــا النـــازلون بحيث شينـــا
وانـــا التـــاركون اذا سخطنـــا
وانـــا الآخـــذون اذا رضينـــا
ونشرب ان وردنـــا المـــاء صفوا
ويشرب غيـــرنا كـــدراً وطينـــا

وطرفة يقـــول :

اذا القـــوم قالوا من فتى خلت انني
عنيت فـــلم أكسل ولـــم أتبلـــدِ
ولست بحـــلال التـــلاع مخافـــة
ولكـــن متى يسترفد القوم أرفـــدِ
فان تبغني في حلقة القـــوم تلقني
وان تلتمسني في الحوانيت تصطدِ
وان يلتـــق الحي الجميـــع تلاقني
الى ذروة البيت الـــكريم المصمدِ

هذه نماذج تظهر لنا ان الموضوع الأصلي، في أربع من هذه القصائد الطويلة مختلف باختلاف التجربة الشعرية . ولمن أراد أن يستزيد فليقرأ القصائد العشر .

ولسنا ننكر أن النقاد والرواة القدامى كان لهم رأي في الشعر الجاهلي من حيث نحله . ولسنا ننكر أن قدراً منه قد يكون منحولاً . ولكن نود أن نقول هنا أن بعض هؤلاء النقاد لعلهم استكثروا على العصر الجاهلي أن تكون له مثل هذه البلاغة والفحولة في قول الشعر ، فحكموا بأنه منحول ، أو على الأقل قدر كبير منه .

ومع أن بعض الباحثين يؤكد على أن وجود ألفاظ غريبة أي أعجمية في القصيدة يكون أساساً في تقرير أنه منحول ، فنقول رداً على ذلك اننا لم يتح لنا بعد أن ندرس الاتصال الذي تم بين العرب وغيرهم قبل الاسلام ، كي نصدر أحكاماً من هذا النوع .

فتجربة العصر الجاهلي الشعرية ، ممثلة في القصائد الطويلة تظل مسألة حرية بامعان النظر والبحث الدقيق . وهذا البحث يجب أن يكون داخلياً وثقافياً لا لغوياً فحسب .

ولما جاء الاسلام أوحى الى النبي بالقرآن الكريم وأخذ الناس يحفظونه ويرتلونه فملأ نفوسهم لما فيه من معان رفيعة ودعوة صادقة وبلاغة سامية واسلوب فيه الاعجاز كل الاعجاز . وملك على الناس لبهم ودخل شغاف قلوبهم . وجاءت أحاديث الرسول وفيها حكمة وبلاغة . وهنـــا استقرت للنثر دولة ، وتخلى الناس عن الشعر الا قلة .

ولقد كان القرآن باعجازه البياني نقلة رفيعة في تاريخ العربية ، وحسبنا في هذا المقام أن ننقل قولاً لمصطفى صادق الرافعي عن اعجاز القرآن فيه بيان ما نذكر ، قال : نزل القرآن على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأفصح ما تسمو اليه لغة العرب في خصائصها العجيبة وما تقوم به ، مما هو السبب في جزالتها ودقة أوضاعها وأحكام نظمهـــا واجتماعها من ذلك على تأليف صوتي يكاد يكون موسيقياً محصناً في التركيب والتناسب بين أجراس الحروف ، والملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذي يؤديه . فكان مما لا بد بالضرورة أن يكون القرآن أملك بهـــذه الصفات كلها ، وأن يكون ذلك التأليف أظهر الوجوه التي نزل عليها . ثم ان تعدد مناحي هذا التأليف تعدداً يكافيء الفروع اللسانية التي سبقت بها فطرة اللغة في العرب ، حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنـــه الفطري ولهجة قومه توقيعاً يطلق من نفسه الأصوات الموسيقية التي يشيع بها الطرب في هذه النفس ، بما يسمونه في لغة العرب بياناً وفصاحة ، وهو في لغة الحقيقة الموسيقى اللغوية.

واذا تم هذا للقرآن مع بقاء الاعجاز الذي تحدى به ، ومع اليأس من معارضته ، على ما يكون في نظمه من تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات بحسب ما يلائم تلك الأحوال في مناطق العرب ، فقد تم له التمام كله ، وصار اعجازه اعجازاً للفطرة اللغوية في نفسها حيث كانت وكيف ظهرت ومهما يكن من أمرها : ومتى كان العجز فطرياً فقد ثبت بطبيعته ، وان لج فيه الناس جميعاً ، لأنه شيء في تلك الفطرة يفهم منه صريحاً ثم لا تنكر هي موضعه منها وموقعه . وان كابرت فيه الألفاظ وبالغت الأهواء في جحده والانتفاء منه مـــراء ومغالبة .

وقد كثرت في أيام الرسول والخلفاء الراشدين والأمويين الخطب السياسية . ومع أن الشعر رجع له بعض مما كان له من قبل ، فان الأساليب النثرية هي التي فضلت في تلك الأيـــام .

واللغة التي أنزل بها القرآن ، كما قال الرافعي ، هي هذه اللغة التي كان العرب قد اهتدوا اليها قبل البعثة من حيث قواعدها واستعمالها . ولكن القرآن جاء فيها على أكمل ما يمكن أن تصل اليه ، والذين كتبوا وخطبوا في صدر الاسلام استعملوا هذه اللغة الجاهلية نفسها . وذلك بأنها كانت قد اكتملت . أما الذي حفظ لها كيانها بعد الاسلام وأدى الى انتشارها وتوسع رقعة استعمالها فهو القرآن الكريم نفسه ، لما أقبل الناس عليه قراءة وتفسيراً وجمع غريب وبلاغة ونحواً وما الى ذلك .

واذا كانت اللغة أصلاً أداة للتعبير ، ولم تكن العربية تختلف في ذلك عن غيرها من اللغات ، فان اختيار الله اللغة العربية لغة الوحي جعل منها أداة ممتازة . ذلك بأن المعاني التي حفل بها القرآن من حيث الايمان والعقيدة ومكارم الأخلاق ، والصور التي نجدها فيه من وصف الجنة والنار وغيرهما ، والقواعد الشرعية والخلقية التي استنها للمؤمنين ، وقصص الأنبياء والرسل والامثال التي ضربها توضيحاً للأهداف والغايات ، والأسس التي فرضها على المسلمين في علاقاتهم بغيرهم ، والوصايا التي حث الناس على اتباعها في علاقاتهم ببعضهم البعض ، كل هذه وغيرها كثير مما لا يمكن حصره ، كان شيئاً جديداً على اللغة العربية . فالقرآن اذن لم يكن سبباً في تثبيت اللغة العربية اسلوباً وبلاغة وتركيباً فحسب ، بل أنه فعل بالنسبة الى اللغة أكثر من ذلك بكثير . لقد حملها كل هذه المعاني التي ذكرنا بعضها . ومعنى هذا أن اللغة تفتقت عن آراء جديدة وصور مستحدثة ، وانها وسعت اطاراً ونطاقاً بحيث أصبح في استطاعتها أن تسع كتاب الله لفظاً وغاية . وهذه نقلة باللغة العربية ليس من اليسير التحدث عنها هنا بأكثر من هذه الاشارة .

ونحن اذا تذكرنا العلوم التي نشأت في اللغة العربية بسبب وجود القرآن الكريم ادركنا معنى هذا الذي نقصده . ومع أنه من الممكن أن نجد أسباباً أخرى لنشوء بعض أنواع علوم اللغة ، فاننا نعتقد أن القرآن كان السبب الأول في نشوء هذه العلوم جملة وتطورها . ولنشر الى القراءات والتفسير فقط على سبيل المثال . فقد تدارس العلماء القراءات وأفردوا لها مؤلفات كثيرة للتأكد من المعنى المقصود وسبيل اتباع الطريق السوي في ذلك وارتباط هذا الأمر بالحروف . ولسنا نخطىء ، فيما نعتقد ، ان نحن ربطنا بين التجويد واحكامه والقراءات . فان الاحتفاء بترتيل القرآن كان باعثاً على درس التجويد ووضع قواعده .

أما التفسير فقد كان أوسع من ذلك مدى ، لأنه كان يقتضي توضيح ما في القرآن لفظاً ومعنى . والمفسرون الممتازون لم يكونوا علماء في اللغة فحسب . اذ أن مثل هذه المعرفة لم تكن كافية ، فان لم يدرك المفسر مختلف وجوه المبنى والمعنى ، لا يستطيع أن ينقل ما يجب نقله عن آي الذكر الحكيم الى قرائه أو طلابه . واتقان التفسير كان يقتضي معرفة التاريخ واخبار الأمم وبالعالم وما فيه والسموات العُلا وما تحتويه . هذا فضلاً عما كان في الآيات من اشارات الى معاني العقيدة أو تفصيل لها .

وما كان من الممكن أن تستنبط القواعد الشرعية من القرآن الكريم قبل أن تتضح معانيه المفصلة للمشتغلين بهذه الموضوعات . واذا تذكرنا أن السنة النبوية كانت متممة للوحي من حيث أنها تفسير له ، فقد ارتبط الحديث وعلومه بالتفسير أيضاً . فاذا أخذنا الطبري مثلاً على ذلك وقرأنا تفسيره لآي من آيات القرآن وجدناه يوضحها لغوياً ويستشهد بالحديث وقد يورد الشعر لتثبيت معنى . وهذا هو ، عندما يفسر كلمة « الأل » في قوله تعالى « لا يرقبون في مؤمن الاً » يقول : وأولى الأقوال بالصواب أن الال يشتمل على معان ثلاثة ، هي : العهد والعقد والحلف ، والقرابة ، والله . فاذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة ، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى ، فالصواب أن يعم ذلك معانيها الثلاثة . فيقال لا يرقبون في مؤمن الله ولا قرابة ولا ميثاقاً .

ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى القرابة قول ابن مقبل **« أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الال واعراق الرحم »** بمعنى قطعوا القرابة .

وقول حسان بن ثابت :

لعمرك أن الك من قريش
كان الشغب من رأل النعام

وأما معناه اذا كان بمعنى العهد فقول القائل :

وجدناهم كاذبي الهم
وذو الال والعهد لا يكذب

من هذا المثل البسيط يتضح لنا أن القرآن الكريم فتح أمام الناس علوماً كثيرة لتفسيره ، ذلك لأن معانيه واسعة جداً .

والذي نود أن نخلص اليه هو أن نزول الوحي باللغة العربية كان أعظم تجربة لتلك اللغة وأكبر دافع لها لأن تتسع آفاقاً وتتفجر معاني وتتفتق آثاراً ، فضلاً عن أن انتشار الاسلام وحاجة المسلمين الى قراءة القرآن مد في الرقعة التي انتشرت فيها العربية غرباً وشرقاً .

نقولا زيادة – بيروت

الغـــوص

وَرُوّاد الأعـمَـاق

صناعة الزيت في المنطقة المغمور
الاستعانة بالغطاسين للقيام بأعمال الصي

ارتياد أعماق البحار، كارتياد أجواز الفضاء، حلم راود الإنسان منذ أزمان سحيقة، فقد تاق الإنسان لاقتحام تلك العوالم الغريبة الكامنة في قعر المحيطات بغية الوقوف عليها والافادة منها، فتعلم الغوص، وابتكر أجهزة ووسائل متنوعة تساعده على البقاء مدداً أطول تحت الماء، ولم تلبث مهنة الغوص أن كسبت أهمية بالغة في الآونة الأخيرة مع التقدم التكنولوجي في أساليب الحفر بحثاً عن الزيت في المناطق المغمورة. وقد ضرب سكان الخليج العربي منذ القدم بسهم وافر في ميدان الغوص سعياً وراء اللؤلؤ المكنون في قعر الخليج.

نموذج لبذلة غوص ابتكرت في القرن السادس عشر حيث يربط كيس ضخم منفوخ حول اذني الغواص للتنفس.

لعل من المفيد، ونحن نحث الخطى في غمرة هذه الحياة المتشعبة، ان نتوقف قليلاً لننظر الى الوراء ونتأمل فيما حولنا من منجزات علميـة رائعة، لنقف على كيفية نشأتها. فالاعمال التي يحققها انسان اليوم هي في الواقع ثمرة احلام انسان الماضي. وهذه الاختراعات والمبتكرات والأجهزة العلمية المتقدمـة المستخدمة في ميادين عديدة ليست سوى افكار جريئة عاشت ردحاً من الزمن في رؤوس الأسلاف من اهل الفكر، ثم لم تلبث ان رأت النور مع أول ومضة. والخبرات الانسانية في هذا المجال اكثر من ان تحصى، ومن بين هذه الخبرات التي مارسها الانسان منذ القدم، ثم اخذت تتطور مع الزمن شيئاً فشيئاً حتى غدت فناً رفيعاً له أسسه وقواعده واجهزته، الغوص وارتياد اعماق المحيطات.

قد لا نعدو الحقيقة اذا ما قلنـا ان الغوص بدأ عند الانسان هواية بسيطة، دون النظر الى تحقيق اهداف بعيـدة معينة، ثم لم يلبث ان هداه تفكيره فيما بعد الى الاستفادة من الثروات المخبوءة في قعر البحر في حدود امكاناته ومعارفه. ومع التقدم العلمي في هذا القرن خطت مهنة الغوص خطوات واسعة بابتكار اجهزة دقيقة تمكن الغواص من البقاء مدداً أطول تحت الماء للقيام بأعمال متنوعة.

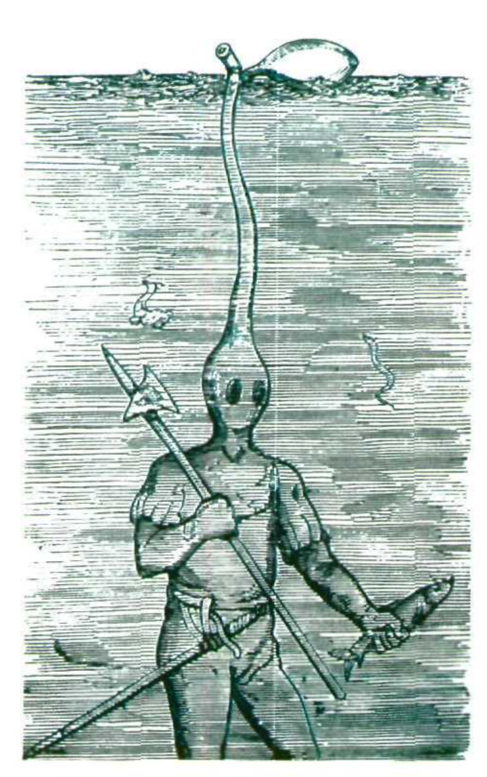
لا يعرف على وجه التحديد أين ومتى بدأ الانسان يمارس مهنة الغوص وخاصة الغوص الهادف. بيد أن المصادر التاريخية القديمـة تشير الى ان سكان الخليج مارسوا هذه المهنة منذ أزمان طويلة بحثاً عن اللؤلؤ. تلك الثروة التي نعم بهـا الخليج حقبة طويلة من الزمن. وخاصة في الشواطىء الغربية من الخليج التي تشمل سواحل المملكة العربية السعودية والبحرين والكويت وعُمان. وصيد اللؤلؤ صناعة كانت، حتى وقت قريب، مصدر رزق لكثير من أبناء الخليج. ومع ما يكتنف مهنة صيد اللؤلؤ من مخاطر وأهوال الا ان بريق اللؤلؤ الأخاذ في اعماق البحر كان دائماً يستهوي أبناء الخليج فتهون في سبيل الحصول عليه المخاطر والصعاب. واللؤلؤ معروف منذ العصور القديمة، وقـد اكسبت صناعته البحرين صيتاً ذائعاً.

ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية المؤرخ «بليني — Pliny» الذي عاش في القرن الأول الميلادي. كما عثر على لوحة صلصالية في مدينة «أور» بالعراق يرجع عهدها الى خمسين قرناً خلت، وتشير الكتابة عليها الى عيون السمك اي اللآليء التي كانت تستوردها «أور» من «دلمون» أي البحرين. وتدل أكوام المحار التي وجدت على الساحل الغربي من البحرين مؤخراً على ان مهنة الغوص لاستخـراج اللؤلؤ كانت قائمة قبل ٤٠٠٠ سنة.

ان صناعة اللؤلؤ التي سادت قروناً طويلة لم تلبث مـع مطلع هذا القرن ان تقلصت بسبب ظهور اللؤلؤ الصناعي في اليابان من ناحية، وتدفق البترول في الخليج من ناحية اخرى، مما صرف الناس عن مهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ والانخراط في اعمال صناعة الزيت المتشعبة. وكان موسم الغوص يمتد عادة من شهر مايو الى شهر اكتوبر، وهو من

اكثر المناسبات اثارة وأشدها خطورة ، فيه يتأهب البحارة والمشتغلون بالغوص لهذه المناسبة حيث ينطلقون في سنابيكهم وجلابيتهم الى مغاصات اللؤلؤ وهم يرددون الاهازيج والاغاني التي تعبر عن الحنين الى الاهل الواقفين على الشاطىء يودعونهم بالنظرات الحانية داعية لهم بالتوفيق والعودة سالمين . وما دمنا نتحدث عن تطور اساليب الغوص وادواته فلنرافق الغواصين في رحلة البحث عن اللؤلؤ الذي تهون دونه الصعاب .

يختار « النوخذة » أي ربان السفينة الآمر الناهي فيها « الهير » أي منطقة الغوص التي سيزاول رجاله الغوص فيها ، حيث يقوم « الجزوة » وهم العاملون على السفينة بالقاء « السّن » في البحر وهو حجر كبير يربط في طرف حبل وذلك لايقاف السفينة اثناء الغوص . ويتأكد الغواصون من وجود محار اللؤلؤ في منطقة ما وعلى أي عمق بانزال حبل في طرفه قطعة من الرصاص يطلقون عليها اسم « البلْد » الى قاع البحر ، فاذا علق بالبلْد أصداف أو شوهد عليه ألوان تدل على المحار ثبت لهم مكان الغوص . واحياناً يقوم البعض بشم البلْد للغرض ذاته . وهناك يخلع « الغواويص » ملابسهم ، ويلبس بعضهم سراويل سودا أو زرقا ، وبعضهم يلف « التفار » على وسطه ، وهي قطعة من القماش الأسود ، وذلك منعاً للفت انتباه الاسماك المفترسة ولا سيما سمك « الدول » السام الشبيه بالاخطبوط حين نزولهم الى الاعماق كما يقوم الغواص بدهن جسمه بنقيع الاعشاب ولا سيما القرط والهليلية ليقي جسمه من الطفح الجلدي ، ويضع « الغيص » حول عنقه « الديين » وهو كيس يجمع فيه المحار مصنوع من الخيوط القوية وله فوهة ذات طوق من أغصان الرمان المرنة ليبقى مفتوحاً ، ويسد أنفه بـ « ملقاط » مصنوع من العظام



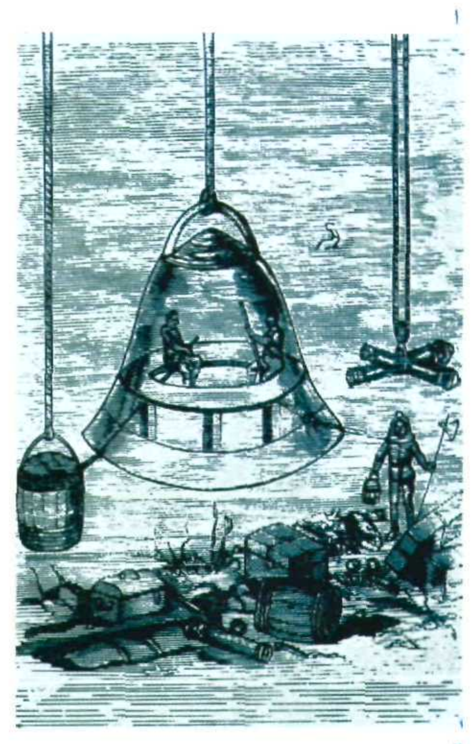
قام « دييجو اوفانو » في عام ١٦٢٨ م بابتكار بذلة الغوص هذه الشبيهة ببرنس مصنوع من جلد البقر ، له انبوب طويل يمتد من الخوذة الى سطح الماء ، حيث يثبت بمثانة ثور منفوخة.

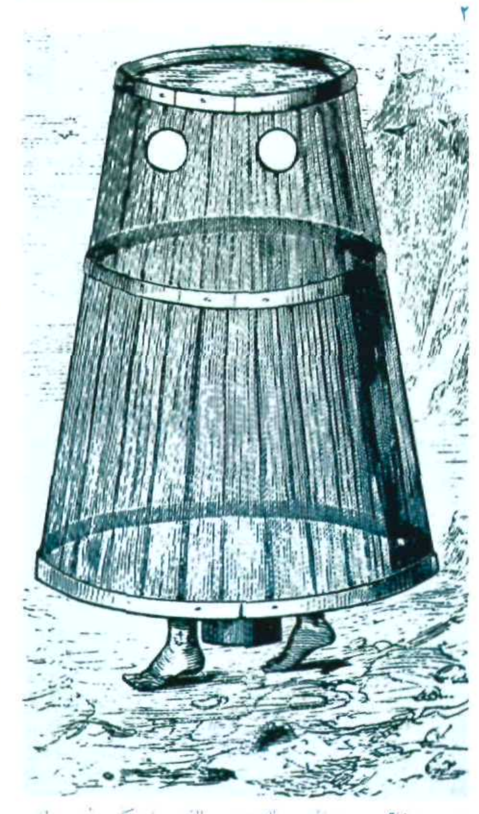
يسمى « الفطام » ، ويشد حول وسطه « الايداء » وهو حبل متين يسحب به الغواص ثم يمسك بـ « الزيبل » وهو حبل آخر يربط طرفه العلوي بحلقات خاصة على ظهر السفينة ، وطرفه السفلي بكتلة معدنية من الرصاص يبلغ وزنها نحو ٦ كيلوغرامات تساعد الغواص على النزول الى القاع . ومن بين الأمور التي يراعيها الغواص قبل ان يندفع الى الاعماق ، التنفس . فقد علمته الغريزة والخبرة المكتسبة ان يدخل الى رئتيه الكمية المناسبة من الهواء التي يحتاجها للعمل في قعر البحر تبعاً لقدرته ومدى تحمله . وخلافاً للرأي الشائع فان الغواص لا يغوص في الماء ورئتاه مملوءتان هواء الى سعتهما القصوى ، لان ذلك لا يساعد الغواص على النزول الى القعر بل يجعل الجسم قابلاً للطفو . ولذا نرى الغواص قبل النزول في الماء يقوم باستنشاق الهواء مرتين استنشاقاً عميقاً ثم طرده ، بغية تنشيط عمل الرئتين وتنقية الجهاز التنفسي ، ثم يستنشق الهواء بحيث يملأ نصف الرئتين ، وهي كمية من الهواء يستهلكها في رحلته الى قعر البحر ثم الصعود الى السطح . هذا ولكل غواص شخص مسؤول عنه يقف على سدة السفينة يسمى « السيّب » ويمسك بالحبل الذي يشد الغواص من وسطه . فعندما يتلقى « السيّب » اشارة من « الغيص » عبارة عن هزة خفيفة للحبل ، يقوم في الحال بانتشاله من الاعماق ، وعلى يقظة « السيّب » وانتباهه تتوقف حياة الغواص . ويستطيع الغواص الماهر أن يبقى تحت الماء قرابة دقيقتين ونصف الدقيقة ، ويقوم في اليوم بحوالي ٩٠ « تبّة » أي غطسة . والى جانب الغواصين والسيوب هناك رجال آخرون يقومون بأعمال أخرى على ظهر السفينة ومنهم « الرضيف » الذي يساعد السيّب ، و « التبّاب » وهو الذي يكون في دور التمرين على العمل ويشرف على خدمة « النوخذة » ، و « النهّام » حادي السفينة ، الذي يردد الاهازيج واغاني البحر التي تبعث النشاط في نفوس البحارة وتشحذ هممهم . وتتم صبيحة كل يوم عملية فتح المحار قبل بدء جولة غوص جديدة ، وذلك باستعمال سكاكين معقوفة تسمى الواحدة منها « مفلقة » ، وعندما يكون البحر هائجاً يقوم العاملون على السفينة بوضع المحار في « الخدعة » وهو مستودع صغير في السفينة ، ريثما يهدأ الموج ، ويتولى النوخذة مهمة الاحتفاظ باللؤلؤ . هذا ويقوم « الطواويش » ، أي تجار اللؤلؤ ، بالتجول في عرض البحر بقواربهم الصغيرة والنزول على سفن الغواصين لشراء ما قد جمعوه من لؤلؤ . ومما هو جدير بالذكر أن الغواصين خلال موسم الغوص يشربون من ينابيع المياه العذبة المنتشرة في قعر الخليج والتي تعتبر من عجائب الطبيعة . وهذه الينابيع معروفة

لدى الغواصين سيما وان محار اللؤلؤ يتكاثر حولها . فعندما يريدون الماء يشد أحـد الغواصين قربة الى وسطه بحبل متين ويغوص بها حتى يصل الى فتحة العين الفوارة فيجعل فوهة القربة فوقها حتى تمتلىء . وقد يتناوب اكثر من غواص على ملئها ومن ثم الصعود بهـا الى السطح . وعندما ينتهي موسم الغوص باشارة متعارف عليها بين البحارة ، يتهيـأون « للقفال » أي العودة الى الشاطىء حاملين معهم « القماش » أي اللؤلؤ النفيس ثمرة جهودهم المضنية . أو يعودون خفافاً صفر اليدين يمنون النفس بحظ أوفر في الموسم الذي يليـه .

أمـا الفنيقيون في الألف الثالث قبل الميلاد فكانوا يغوصون الى اعمـاق البحر لجمع اصداف « الموركس » لاستخراج الارجوان . وهو صبغ احمر كان يستعمله الفنيقيون . ولا سيما سكان صور لصباغة الثياب . وقد اتخذه الاباطرة الرومان لوناً خاصاً بهم . هذا وترد اشارة للغطس العميق في اليـاذة هوميروس . التي تحدثنا عن غطاس البحث عن المحـار — Oysters .

وفي العصور الوسطى اخذ البعض في ابتكار وسائل وأدوات تساعد الغواص على النزول الى مسافات أعمق في البحار والبقاء تحت الماء لمدد أطول . فهذا « ليوناردو دافنشي » (١٤٥٢ — ١٥١٩ م) صمم خوذة غوص من الجلد مرززة بمسامير تحميه من الاسماك المفترسة والحيوانات البحرية الضخمة . ويمتد منها انبوب للتنفس يطفو على سطح الماء بواسطة عوامة من الفلين . وفي عام ١٦٢٨ م ابتكـر « دييجو اوفانو » برنساً من جلد البقر يصل من رأس الغطاس الى وسطه مزودا بقطع زجاجية للرؤية من خلالها . ويمتد من الخوذة انبوب جلدي طويل للتنفس يثبت طرفه العلوي على سطح الماء بمثانة





١ — « ناقوس هاي » للغوص الذي ابتكر في مطلع القرن الثامن عشر ، وهو مصنوع من الرصاص وبداخله مقعد يجلس عليه الغواصون ، ويجدد هواؤه بواسطة براميل يتم انزالها الى مستوى الناقوس في المـــاء .

٢ — ناقوس الغوص الخشبي وهو من صنع « هالي » فيه ثقبان زجاجيان للرؤية .

ثور منفوخة أو كيس مملوء بالهواء . هذا ولم يكن يعلم هؤلاء المخترعون والمصممون لهذه الوسائل انه يتعذر على الغواص التنفس من خلال هذا الانبوب الطويل لأكثر من عمق بضع أقدام من سطح الماء ، لجهلهم بقوانين الضغط وعلاقتها بعملية التنفس . ثم جاء « بوريللي » الايطـالي (١٦٠٨ — ١٦٧٩) فابتكر جهازاً لتجديد الهواء ذا دورة مغلقة يشتمل على غطـاء للرأس مزود بقطعة من الزجـاج يرى الغواص من خلالها . فالهواء المزفور يمر عبر انبوب نحاسي دقيق يحيط به الماء ويصل بين كيسين ، أحدهما صغير والآخر كبير ، لازالة الشوائب وتجديد الهواء . وكان على الغواص المستخدم لهذا الجهاز ان يصعد الى سطح الماء من وقت الى آخر لتجديد كمية الهواء جميعها . وفي عـام ١٧١٦ م ابتكر « هالي — Halley » الايطالي ناقوساً للغوص مصنوعاً مـن الرصاص ، يبلغ ارتفاعه ثماني اقدام ، بداخله مقعد يجلس عليه الغواصون . وكان الهواء في الناقوس يجدد بوساطة براميل مملوءة بالهواء تنزل الى مستوى الناقوس وتتصل بالناقوس عبر انبوب خاص . وقد استطاع « هالي » بهذا الناقوس النزول الى عمق ٦٠ قدماً والمكوث نحو ٩٠ دقيقة تحت الماء . بيد أنه شعر بألم في اذنيه ، مرد ذلك الى ان امثال « هالي » من رواد الاعماق الأوائل لم يدركوا تأثير الضغط على جسم الانسان . ثم صنع « هالي » ناقوساً آخر من الخشب يشبه سلة مقلوبة فيه ثقبـان زجاجيان للرؤية . ويصل الهواء الى الناقوس من برميلين سعة الواحد منهما ٣٦ غالونا يجري انزالهما في الماء الى مستوى الناقوس واخراجهما بالتناوب . اما أول جهاز عملي للغطس فقد صنعه الالماني « اغسطس زيبه — Augustus Siebe » اذ ابتكر عـام ١٨٣٠ بذلة غوص كاملة وخوذة بصمامات هواء . ورغم اجراء التحسينات

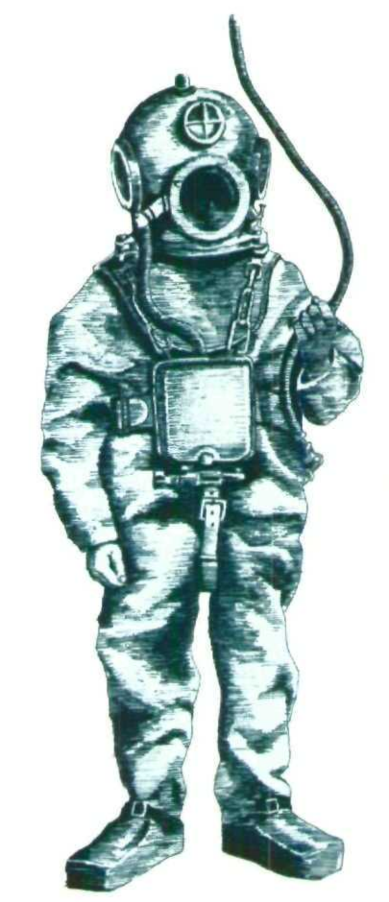


غطاس يتأهب للغطس في اعماق البحر ،
ويبدو هنا مرتدياً بذلة الغطس .

بذلة الغوص المصفحة ، وهي احدث ما توصل اليه المهتمون بشؤون الغوص ، وبها يستطيع الغواص العمل على عمق يصل الى ٣٠٠٠ قدم .

العديدة على هذه البذلة فيما بعد ، فان مبدأ « زيبه » في هذا المجال هو السائد عالمياً حتى اليـــوم .

وبحلول القرن العشرين دخلت مهنة الغوص مرحلة جديدة حينما أخـــذت أهميتها تبرز الى حيز الوجود بشكل فعال مع اكتشاف الزيت في المناطق المغمورة وما تقتضيه صناعة الزيت من أعمـــال متنوعة تحت الماء ، كما هي الحال مع شركة أرامكو في المملكة العربية السعودية التي تشكل أعمال الغوص جزءاً حيوياً مـــن أعمالها في المناطق المغمورة في مياه الخليج . أضف الى ذلك ان اعمال الغوص ازدادت اهمية مع الرغبة في دراسة الحياة البحرية ولا سيما اسماك البحار العميقة . والحاجة الى تشييد المنشآت تحت الماء ، ومـــد خطوط الانابيب والكابلات . والقيـــام بأعمال الصيانة على المنشآت البحرية ، والمساعدة في بناء الموانىء ، وحواجـــز الامواج ، والسدود ، والجسور ، وفحص هياكل السفن ، واستخراج الاسفنج ، وازالة العوائق الموجودة تحت الماء كالسفن والطائرات المحطمة والتنقيب عن الآثار البحرية الى غير ذلك من الاعمال المختلفة التي تتطلب مهارة فائقة في الغوص . فمن الأمثلة التي لا تزال عالقة في الاذهان والتي تدل على مدى الحاجة الى الغطاســـين ومعدات الغطس ، ما حدث في عـــام ١٩١٧ . ففي هذا العام أصيبت عـــابرة المحيطات « لورنتيك — Laurantic » بطوربيد وهوت الى الاعماق ، تحمل معها ثروة من الذهب والفضة ، كان من الممكن ان تضيع كلها لو لم تخترع وسيلة للغطس والعمل في الاعماق . فقد نزل الغطاسون الى حيث استقرت عـــابرة المحيطات على عمق ٤٠ متراً تقريبـــاً وشرعوا في نقل الكنز الى السطح . ولقد كان عمل الغطاسين شاقاً استغرق انجازه ست سنوات ، اذ تمكنوا من انقـــاذ



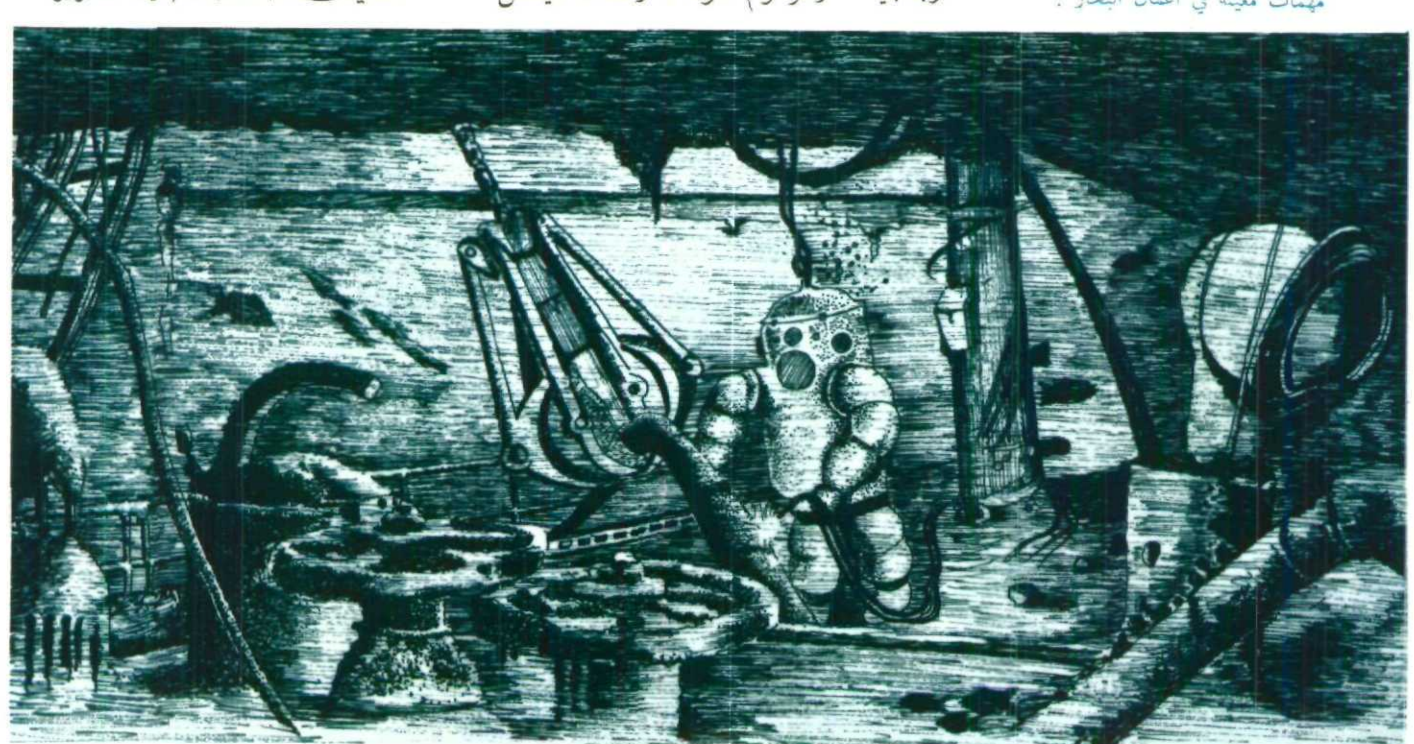
نموذج لبذلة غطس يستخدمها الغطاسون في انجاز مهمات معينة في اعماق البحار .

٣١٦٨ سبيكة ذهبية . واعتبر ذلك أثمن كنز تمكن الغطاسون من استعادته . وفي مناسبة أخرى ، حدثت عام ١٩٤٠ م ، هبطت الى القـاع بعيداً عن شواطىء نيوزيلندا ثروة ذهبية ضخمة عندما اصطدمت السفينة « نياجارا — Niagara » بلغم واستقرت على عمق ١٦٠ متراً تقريباً . حيث عثر عليها بوساطة « غرفة مراقبة — Observation Chamber » أنزلت الى القاع ، وهذه الغرفة مصنوعة من الصلب ولها نوافذ من الزجاج ينزل فيها الغواصون الى اعماق عظيمة . ولقد امكن انقاذ معظم الذهب بهذه الطريقة ، وكانت تلك أعمق عملية انقاذ في التاريخ . تلك الاعمـال الفذة جعلت البعض يطلق على الغواصين اسم الضفادع البشرية .

هذا وقد ابتكرت مؤخراً بذلة غطس معدنية تشبه الى حد بعيد بذلة رجل الفضاء ، وهي مزودة بمضخة هواء . وخوذة من الصلب بنوافذ زجاجية ، وخرطوم هواء ، وحذاء ثقيـل لابقاء قدمي الغطاس على القاع . واثقال من الرصاص تشبك بصدر الغواص وظهره لتحفظه من الطفو الى السطح ، وكابل انقاذ يمكن به الاتصال مع السطح عن طريق مجموعة من الهزات ، كما يمكن استعماله في حالة الطوارىء لرفعه الى اعلى وجهاز هاتف يستعمله الغطاس في مخاطبة السطح . اما الغطاسون المحترفون فهم لا يستعملون الأجهزة الآنفة الذكـر ، بل يكتفون بساعة يد لمعرفة مدة بقاء ما لديهم من اوكسجين ، وبوصلة ، ومقيـاس اعماق . وكثيراً ما نرى الغواصين الهواة يحملون معهم آلات التصوير تحت الماء والبنادق ذات الحراب لصيد الاسمـاك المتنـوعة .

تلك هي مهنة الغوص التي بدأت متواضعة ، ثم أخذت تتطور حتى وصلت الى مراحل متقدمة أملتها الاعمال البحرية الحديثة التي تتطلب من الغواص قدراً كبيراً من المهارة والدربة والمران .

سليمان نصر الله/هيئة التحرير



غطاس اعماق في بذلة معينة يعمل على سطح سفينة .

القصيدة العمودية

بقلم: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

نسبت القصيدة الشعرية الى عمود الشعر العربي، وقيل لها قصيدة عمودية، وعمود الشعر اصطلاح جديد ظهر في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري، وتردد على ألسنة النقاد العرب في هذه الحقبة الحافلة بمختلف التيارات الأدبية والنقدية، وأخذه عنهم من جاء بعدهم من النقاد، ولا يزالون يكررونه فيما يكتبون من نقد ودراسات نقدية حتى اليوم، ويتسع معناه حيناً ويضيق حيناً آخر، بحسب البيئات والشخصيات والأحوال.

يروي الآمدي الحسن بن بشر «٣٧١هـ» عن أبي علي محمد بن العلاء السجستاني، وكان صديق البحتري، أنه قال: سئل البحتري عن نفسه وعن أبي تمام فقال: «هو أغوص على المعاني وأنا أقوم بعمود الشعر»(١).

وكان الآمدي يقول عن البحتري: اعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف(٢)، وقال عن أبي تمام: شعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة(٣).

وكان أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي صاحب كتاب «الموازنة بين الطائيين» أظهر النقاد الذين حكموا عمود الشعر العربي، وكشفوا عنه، واحتفلوا به احتفالاً شديداً، وكان الآمدي يرجع الى الأصول الفنية والبيانية في الشعر القديم فيجعلها كل شيء، أو أهم شيء في النقد، فهو ينقد شعر أبي تمام بالاحتكام الى النهج العربي في شعره وبتحكيم الذوق الأدبي والأساليب العربية في كلامه، يرد ما ترده، ويقبل ما تقبله. فللعرب طريق خاص في استعمال الأسلوب والتركيب والنظم والصياغة، وفي الأفكار والمعاني والأخيلة وتناول الموضوع، وفي الأوزان الشعرية التي يستعملونها، ولهم نهج خاص في المجازات والتشبيهات والاستعارات والتمثيل والكناية، وفيما يزينون به كلامهم من طباق وجناس ومقابلة وتورية وخلاف ذلك. وذلك النهج العربي الشعري الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت اليه، ويسترشد به ويحتذي حذوه، وينظم شعره على مثاله ومنواله، ثم هو ميزان النقد وأساسه، فالناقد بحكم ذلك النهج الخاص فيما ينقد من شعر، فيفطن لما فيه من جمال أو قبح، يدرك ذلك بطبعه وذوقه، وقد لا يجد الى تصوير ما في نفسه من شعور بالجمال أو القبح سبيلا.

وسمي ذلك النهج الفني الخالص «عمود الشعر العربي» الذي يمكننا أن نقول عنه في اجمال شديد: انه خلاصة

لكل التقاليد الفنية التي التزمها الشعراء القدماء في قصائدهم ، سواء في الافكار والمعاني أم الأخيلة والصور والتشبيهات والتمثيلات والمجازات والكنايات ، أم في الأوزان والقوافي والألفاظ والأساليب وغير ذلك من شتى عناصر البيان .

وحتى اليوم لا نجد تعريفاً صادقاً لعمود الشعر عند كل النقاد العرب القدماء والمحدثين والمعاصرين . وقد يكون تعريفنا هذا له أوفى ما يمكن أن نعرفه به ، ونريده منه ، وما يؤثر عن ابن طباطبا والمرزوقي وغيرهما عن « عمود الشعر العربي » قد يكون غامضاً كل الغموض ان لم نقل إنه خطأ كلّ الخطأ ، حيث نرى الآمدي لا يعرّف لنا عمود الشعر ولا يحدّد معناه .

ان القصيدة العربية التي ورثها الشعراء العباسيون أو المحدثون عن الاسلاف ، تظهر في أروع نماذجها التي تحتذى وهي قصيدة المعلقات التي تمتاز بتهذيبها الفني الظاهر ، وبالتزامها للوزن والقافية بخاصة ، وبالتعدد في أغراضها ، وباتباعها نمطاً خاصاً في افتتاحها ببكاء الأطلال ، وفي الانتقال من المطلع الى شتى الأغراض الشعرية الأخرى التي تشتمل عليها ، وكان كل تراثنا الشعري يتمثل في هذه القصيدة العمودية التي ورثناها عن امرىء القيس وحسان وجرير وأضرابهم الاصلاء، وهي قصيدة ملتزمة مقيدة ، والفن هو الفن لا بد فيه من القيود ، والمثل الفرنسي يقول : لا يحيا الفن بدون قيود ، فمن خلال القيود الفنية تظهر عبقرية الشاعر وموهبته الأصيلة ، وفطرته الفنية المتميزة . والحرية في الفن هي استعمال الفنان الموهوب لأقصى عبقريته من خلال تلك القيود. وكان نيتشه يعرّف الفن بأنه اللعب بمهارة بين كل القيود ، ومن ثم تبدو عظمة الفن . ولا يستثنى من ذلك ، ومن وجوب الحرص على هذه القيود في أغلب الأمر ، كلاسيكي أو رومانسيّ أو رمزي أو برناسي أو سريالي أو واقعي .. الجميع يقفون أمام قيود الفن في اكبار لها ، وخضوع لمناهجها .

ومن الخطأ أن نتابع مذهب الذين يرمون الصياغة الكلاسيكية بأنها تغلب الشاعر على ابداعه وشخصيته ، ولا تسمح للقوة الخلاقة الكامنة فيه أن تكشف عن نفسها . ففي رأينا أن الصياغة الكلاسيكية لا يمكن أن تقف عقبة أمام الابداع وظهور الشخصية ، ولا أمام حرية الفنان وشخصيته المستقلة ، وكان ابو شادي يكرر أنه يهدف الى « التحرر من قيود لا ضرورة لها لا الى التحرر من القواعد الفنية »(٤) .

انّ الشاعر الموهوب لا تعوقه أبداً قيود الوزن والقافية كما يقول أبو شادي في مقدمة ديوانه « الينبوع » .

والقصيدة العمودية التي تلتزم عمود الشعر العربي القديم موسيقاها الجميلة ، ونغمها الموقع ، وجمالها الفني الأخاذ ، وتأثيرها الشديد الواضح في السامعين والقارئين ، وان كانت هذه التقاليد الفنية التي تحرص عليها القصيدة الكلاسيكية المحافظة أصبحت في العصر الراهن مجالاً للنقد عند بعض المجددين من المتأثرين بالثقافات الغربية الحديثة في الشعر . ونحن لا ننكر أن بعض هذه التقاليد يمكن التحوير فيها ، أو التجاوز عنها ، أو التحرر منها ، لمنح الشاعر قسطاً من الحرية أوسع ، لكن ذلك على أية حال لم يكن يجوزه الذين التزموا بعمود الشعر من النقاد العرب ، ولا يعني أيضاً التحرر من كل القيود .

ويجيء العصر العباسي ، ويظهر الشعراء المحدثون والمولدون ويأخذون في التجديد في الشعر في نطاق محدود ، رأوا أن سلوكه جزء من حرية الشاعر الفنية ، ولا يتعارض مع قيود الشعر الملتزمة بحال من الأحوال ، ولقد نشأ الشعراء المحدثون في ظلال العصر العباسي وحضارته وتأثروا بمظاهر الحياة المختلفة فيه ، وبما ساده من امتزاج حدث بين العرب والأمم الأجنبية في كل شيء ، حتى في الثقافة والأدب والشعر وضروب الفن . ومن المحدثين ظهر المولدون من الشعراء وهم الذين نشأوا من آباء عرب وأمهات أعجميات وبعضهم كانت أصولهم كلها أعجمية ، وان كان قد يطلق لفظ « المولدين » على ما يطلق عليه لفظ « المحدثين » من شهود العصر العباسي والتأثر بحضارته ومن اتساع أفق الخيال فيه باتساع المشاهدات والمرائي فيه .

ولقد زاد المحدثون في معاني المتقدمين من الشعراء واهتدوا الى معان جديدة ، وأتوا بأخيلة ساحرة وتشبيهات مبتكرة ، وكتبوا قصائد في أغراض غير الأغراض القديمة في بعض الأحايين ، فوق ما صنعوه من تسهيل الأساليب والأوزان الشعرية ، وقد صبغت الثقافات الجديدة من يونانية وفارسية عقلية المولدين بآثارها في التفكير والخيال والمعاني وطرافة التقسيم ونظم الشعراء ما تسرب اليهم من الصور الفارسية حتى ليقول بعض الدارسين من مثل أحمد أمين أن بشاراً وأبا نواس والعتّابي واضرابهم نظموا شعراً عربياً فيه بلاغة العرب ومعاني الفرس ، وفي النثر كان كذلك عبد الحميد الكاتب وابن المقفع يعملان عملهما في احتذاء الثقافة الفارسية ، وعبد الحميد في آخر العصر الأموي وهو الذي استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي كما يقول أبو هلال في كتابه « ديوان المعاني » ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أن المولدين وطبقات

المحدثين لم يسفوا في فنهم الشعري ، بل لقد صاروا في أحايين كثيرة الى الملحون والمرذول والساقط السوقي والغريب الوحشي ، والى المعاني الغامضة والاستعارات البعيدة وأتوا بالكثير من المتكلف الممقوت وخرجوا في أحيان من عاطفة الشاعر الى فكر الحكيم . وكانت موجة البديع وتكلفه خروجاً على عمود الشعر في رأي كثير من النقاد ، وقامت حوله حركات نقدية شديدة في القرن الثالث الهجري ، وألف ابن المعتز من أجل ذلك كتابه المشهور « البديع » ودافع فيه عن نظرية البديع واثبت انها لا تعني الخروج على عمود الشعر بحال من الأحوال ، بل كان المحدثون يأتون في باب الأوصاف بالتشبيه المفرط البعيد(٥) من حيث كان مذهب العرب أن يصفوا الشيء على ما هو عليه وعلى ما شوهد من غير اعتماد لاغراب ولا ابداع (٦) .

وعلى أية حال فقد وجدنا الكثير من صور التجديد في القصيدة عند المحدثين : تجديد في الشكل وتجديد في المضمون وفي الفكر والثقافة والمحتوى ، الى خروج على نمط الجاهلين في الصياغة والتصوير والخيال والصنعة والمعاني مما خالفوا فيه القدماء وأخلّوا فيه بعمود الشعر اخلالاً واضحاً .

ويتابع النقاد في أوائل عصر المحدثين هذه الحركة الشعرية الجديدة متابعة دقيقة ، ويبدون آراءهم في هذا الشعر المحدث المتحرر من عمود الشعر ويقفون موقفين :

١ — أبو عمرو بن العلاء (— ١٥٤هـ) ويمثل مدرسة المحافظة .

٢ — خلف الأحمر (— ١٨٢ هـ) ويمثل مدرسة التجديد .

فأما أبو عمرو بن العلاء فقد كان شديد التعصب على المحدثين لخروجهم على عمود الشعر بل كان يتعصب على الشعراء الاسلاميين كذلك(٧) وكان لا يرى الشعر الا للجاهليين ، وكان أشد الناس تسليماً للعرب كما يقول ابن سلام (— ٢٣١ هـ) ، ولا يعد الشعر الا ما كان للمتقدمين ، وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا اليه وما كان من قبيح فهو من عندهم(٨) وجلس اليه الاصمعي (— ٢١٦ هـ) عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت اسلامي(٩) ، فضلاً عن أن يحتج بشعر المحدثين ، وقال : لو ادرك الاخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً(١٠) .. ويتابعه ابن الاعرابي في الازراء بالمحدثين وشعرهم والاشادة بشعر القدماء(١١) وكان يقول في شعر أبي تمام : ان كان هذا شعراً فكلام العرب باطل(١٢) . وكان ابو حاتم يعيب كذلك شعر أبي تمام (١٣) ، وكذلك كان ابو عبيدة ، فعنده(١٤) أن أشعر الناس امرؤ القيس والنابغة وزهير (١٥) ، وأشعر الاسلاميين جرير والفرزدق والأخطل(١٦) ، وكان يونس والمفضل الضبي يقدمان جريراً ، ومثلهما بشار (١٧) ، وقال مالك بن الأخطل لأبيه : رأيت جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر فقال له أبوه : الذي يغرف من بحر أشعرهما(١٨) ، وكان البحتري يقدم الفرزدق(١٩) وكان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية(٢٠) وكان اسحاق الموصلي ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبة لهم(٢١) فطعن على أبي نواس (٢٢) وعلى أبي العتاهية(٢٣) ، وأبي تمام(٢٤) ، وكان لا يعتد الا بالقديم(٢٥) ، ومثل ذلك التعصب للآداب القديمة موجود في الآداب الغربية كذلك فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن تدرس ليلاً ونهاراً ، وان الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه(٢٦) والنقاد في العصر الكلاسيكي في أوربا كانوا يفتنون بالنماذج الاغريقية القديمة .. وعصبية هؤلاء النقاد على شعر المولدين ظاهرة ، وقد اعتذر الباقلاني عن هؤلاء النقاد بميلهم الى الشعر الذي يجمع الغريب ، والمعاني(٢٧) واعتذر عنهم ابن رشيق بحاجتهم الى الشاهد والمثل وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون(٢٨) .

وأما خلف الأحمر فقد كان لا يشق له غبار في النقد ، ولا يجري معه أحد في حلبة هذه الصناعة (٢٩) وكان يفضل بعض النماذج المحدثة على الشعر الجاهلي ، ففضل لامية مروان بن أبي حفصة على لامية الأعشى (٣٠) ، ويتابعه في هذا الانصاف لشعر المحدثين الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز ، فقد كان الجاحظ ينكر غلو المتعصبين على المحدثين(٣١) ، وكان ابو العباس المبرد لا يتعصب لقديم على محدث(٣٢) ، وكذلك كان ابن قتيبة « —٢٧٦هـ» كما ذكر لنا في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ، وكذلك كان موقف ابن المعتز (٣٣) ، ولقد انصفت هذه الطبقة المحدثين وشعرهم انصافاً ظاهراً .

ويجيء الشعراء المحدثون من ذوي الثقافات الجديدة كأبي تمام وابن الرومي وغيرهما ، ويخرج شعرهم على عمود الشعر العربي خروجاً واضحاً ويختلف النقاد فيهم اختلافاً بيناً ، كما ترى في كتاب « الموازنة بين الطائيين » للآمدي ، الذي يقص علينا كل آراء النقاد وخصوماتهم في أبي تمام واتهام الكثير له بخروجه على عمود الشعر ، وكذلك نرى خلافاً شديداً بين النقاد حول ابن الرومي وشعره ، فهو عند ابن رشيق أولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتتانه(٣٤) ويتابعه ابن شرف في « رسالة الانتقاد » ، فيرى

انه « شجرة الاختراع وثمرة الابتداع ». ويقول عنه المعري : ان أدبه أكثر من عقله ، ويثني عليه المسعودي وابن خلكان من حيث أهمله أبو الفرج في « الأغاني » وذمه القاضي الجرجاني في « الوساطة » وقد أعجب به المعاصرون من النقاد اعجاباً شديداً كطه حسين والعقاد والمازني وشكري وغيرهم ، ووراثة ابن الرومي اليونانية أصل فنه الأدبي عند العقاد ، ويضيف اليها طه حسين اثر الثقافة اليونانية الاسلامية (٣٥) .

وعند هذا الحد يتضح لنا معنى عمود الشعر وتحكيم طائفة من النقاد في القرن الثاني والثالث له في الشعر تحكيماً شديداً ، فقد كان نقاد القرن الثاني يعرفون عمود الشعر بمضمونه وفحواه ، لا بنصه وفصه بعكس نقاد القرن الثالث الذين عرفوه بحقيقته ، وتحدثوا عنه في كتبهم كما ترى اعتدال فريق آخر من النقاد في تحكيم عمود الشعر في قصيدة المحدثين ، وانصافهم لشعر المولدين ، ولا يخلو عصر من عصورنا الأدبية من متعصبين لشعر الأوائل من نقاد وشعراء ، يحتذون حذوه ويقلدونه تقليداً شديداً .

ومن ذلك نعرف مضمون القصيدة العمودية التي يعرفها البعض بأنها القصيدة الملتزمة للوزن الشعري وللقافية الشعرية ، ونعرّفها نحن بأنها القصيدة الملتزمة لعمود الشعر العربي التزاماً قوياً ظاهراً ..

على أن المعاصرين ممن خرجوا على المذهب الكلاسيكي ، وتحرروا من الأوزان الشعرية العروضية الموروثة عن الخليل قد نظروا الى عمودية القصيدة ووزنها الموروث نظرة خاصة فانصرفوا عن الأوزان القديمة والأوزان المولدة جملة واقبلوا على الشعر الحر والشعر المنثور والشعر المرسل وغير ذلك من ضروب التجديد في القصيدة الشعرية ، ممعنين كل الامعان في الخروج على عمود الشعر العربي من جديد مرة أخرى . وهؤلاء لعمود الشعر وللقصيدة العمودية عندهم اصطلاح آخر غير اصطلاح القدماء الذي أشرنا اليه من قبل ، فالقصيدة العمودية لديهم هي الصورة البديلة للشعر الحر أو الجديد .

ولا ريب أن هذا الشعر الحر هو خروج كامل على العمودية ومنهج العموديين ومن أجل ذلك كان الخلاف بين النقاد المعاصرين حوله شديداً عنيفاً كما كان الخلاف من قبل شديداً عنيفاً حول تجديد أبي تمام وأضرابه .

ومن ذلك كله نخلص الى أن القصيدة العمودية ذات طابع خاص وخصائص متميزة .

فهي تمتاز بغنائيتها وروحها الذاتية ، وحفاظها على كل تقاليد القصيدة وقيمها الفنية ، وهي تنافي الحرية التي لا تستند الى أساس فني خالص ، وهي قد أدت للأجيال رسالة الشعر كاملة ، وعبرت عن حاجات المجتمع العربي والبيئة الادبية تعبيراً كاملاً ، وهي طوعت نفسها وموسيقاها لأداء كل مشاعر الشاعر وعواطفه دون التواء ولا زيف ، وهي كذلك ضد المناسبات الطارئة والعواطف الزائفة والانفعالات الوقتية ، وليست تعنى أية عناية بالمناسبات العامة انما هي وفي أخص خصائصها ، وأدق سماتها تعبير عن روح الشاعر الاصيلة العميقة الرفيعة .

ان القصيدة العمودية لا زالت ولن تزال تخدم كل أهدافنا وقيم مجتمعنا خدمة كاملة دون نقص أو زيف أو التواء . انها تعبير عن ذاتية الفن والشعر ، وصورة خاصة متميزة لكل قيمنا الفنية التي عرفنا بها ، وصارت عنواناً علينا خلال كل العصور والأجيال ، وستستمر في أداء رسالتها على طول الزمان.

المراجع

(١) ص/١٥ « الموازنة » للآمدي .
(٢) ص/١١ المرجع نفسه .
(٣) المرجع السابق نفسه ص ١١/.
(٤) ٨١ المرجع السابق ، وراجع مجلتي أبولو وأدبي ، وكتابي « رائد الشعر الحديث » بجزئيه المطبوع في القاهرة عام ١٩٥٥ .
(٥) ١٢٤ / ٣ « آداب العرب » للرافعي .
(٦) ١٨٩ « الموازنة » طبعة صبيح .
(٧) ٢٠٩ / ١ البيان والتبيين .
(٨) ٧٣ / ١ العمدة .
(٩) « البيان والتبيين » ، و « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .
(١٠) ١٠٥ « تاريخ النقد الأدبي عند العرب » لطه ابراهيم .
(١١) ٨ الموازنة ، ٣٠٤ الموشح ، ٢٤٤ أخبار أبي تمام للصولي .
(١٢) المرجع السابق نفسه .
(١٣) ٣٠٤ الموشح .
(١٤) « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد .
(١٥) « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد .
(١٦) ٤٦ المرجع نفسه .
(١٧) ١٣٩ « طبقات الشعراء » لابن سلام .
(١٨) ٢٧٣ / ٢ البيان والتبيين
(١٩) ٢٤ صناعتين طبعة صبيح .
(٢٠) ١ / ٣٦٢ ديوان المعاني .
(٢١) ٢٢١ « أخبار أبي تمام » للموصلي .
(٢٢) ٢٨ / ٣ الأغاني .
(٢٣) ٢٥٨ « الموشح » للمرزباني .
(٢٤) ٨ « الموازنة » للآمدي طبعة صبيح .
(٢٥) ٣٥ / ٩ الأغاني .
(٢٦) ١٤٤ « قواعد النقد الأدبي » كرومبي .
(٢٧) ١٠٠ « اعجاز القرآن » للباقلاني .
(٢٨) ٧٣ / ١ العمدة .
(٢٩) ١٩٧ / ١ العمدة .
(٣٠) ٤٠٢ / ٣ « العقد الفريد »
(٣١) ٤٠ / الحيوان .
(٣٢) ١٨ / ١ « الكامل » للمبرد .
(٣٣) ١٤ رسائل ابن المعتز .
(٣٤) ٢٢٥ / ١ العمدة .
(٣٥) ٢٣٧ « من حديث الشعر والنثر » لطه حسين .

الفلاح

للشاعر: الياس قنصل



حياتك رمز للمشقات والرضى … وامثولة للصبر والكد والبذل

رأيتك لا تنفك ترقب في الدجى … لتسبق نور الصبح سعياً الى الحقل

يداك على المحراث يفلح ما قسا … من الأرض في سير رتيب على مهل

وقلبك يتلو في الخفاء دعاءه … ليبعد عنك الله كارثة المحل

نضالك في الغبراء بين أديمها … وعينك في ماء من الأفق منهل

وايمانك المغمور بالصدق والتقى … يجدّد فيك العزم فصلاً الى فصل

بذارك ينبوع من النفع باسم … يفيض بلا منّ ويروي بلا بخل

وجهدك للأوطان والناس نعمة … توزّع أسباب الرفاهة بالعدل

اذا كنت تجني من كفاحك بدرة … فغيرك يجني منه حملاً على حمل

تكبّ على أغراس كفّك حانيا … كما حنّ ذو الحس الشريف على الأهل

وتملأ آناء النهار مضحّيا … براحة جسم لا يكلّ من الشغل

وتغفو بهيج النفس في الليل حالما … بدنيا تسامت بالسماحة والنبل

ففيك من الشحرور عذب صداحه … وفيك سمات الجد من دأب النمل

وفيك صفات الراسيات من الصفا … وفيك مزايا النهر والفجر والوبل

وأنت تفوق الناس علماً وخبرة … وان كنت ترمى بالبساطة والجهل

ألست رفيق الليل والنجم والندى … ألست صديق الغيث والفيء والتل

ألست تناجي الطير والبقل والحصى … وتدري نوايا الورد والآس والفلّ؟

غراسك والالهام حول قطافها … قصائد أغناها النماء عن الصقل

الشركة الع



للعرب ماضٍ عريق في البحرية وعلومها ، وكانت أساطيلهم التجارية والحربية تجوب البحار بين الهند والبحر الأحمر والخليج العربي ، وكذلك البحر الأبيض المتوسط حيث كانت لهم السيادة ردحاً من الزمن أيام حكمهم للأندلس ومالطة وصقلية وجنوبي فرنسا وايطاليا . وها هم اليوم ، في نهضتهم الحديثة ، يتطلعون بنظرة الأمل الباسم إلى المستقبل المشرق يحدوهم تراث حافل بالمجد والاصالة .

فكرة انشاء الشركة واختيار الموقع

بدأت فكرة اقامة حوض جاف لبناء السفن واصلاحها في عام ١٩٦٨ عندما رأت منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول « أوابك » ، وكانت حينذاك مكونة من المملكة العربية السعودية ، والكويت وليبيا ، ضرورة اقامة مثل هذا المشروع في أهم مناطق شحن الزيت الخام في العالم . وقد أظهرت الدراسات الأولية أهمية هذا المشروع وأكدت على ضرورة اقامته في منطقة الخليج ، سيما وأن الطلب على

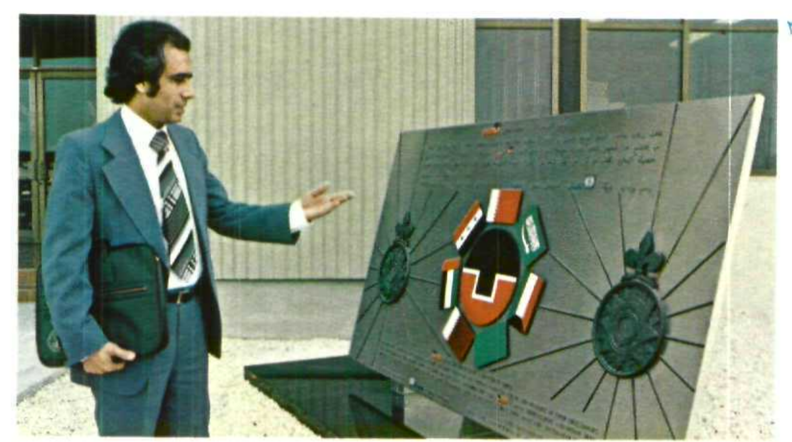
ربيّة لبناء وإصلاح السّفن في البحرين



استخدام ناقلات الزيت الضخمة قد أخذ ينمو بسرعة بعد اغلاق قناة السويس في عام ١٩٦٧ . فالناقلات الضخمة ، وهي في رحلتها من الخليج الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، لا تمر الا بحوض جاف واحد قادر على توفير خدمات الصيانة لها اذا ما بلغت الحمولة الاجمالية للواحدة منها ١٧٥٠٠٠ طن فأكثر ، وكان ذلك الحوض في « لشبونة » عاصمة البرتغال على المحيط الأطلسي . أما الناقلات الضخمة المتجهة الى اليابان فان أقرب الأحواض الى منطقة الخليج هو الكائن في سنغافورة بجنوب شرقي آسيا . يضاف الى هذا ، الطلب المتزايد على زيت الخليج ووجود اسطول عامل من الناقلات الضخمة يصل عددها الى ٨٠٠ ناقلة تقريباً تقوم برحلات الى منطقة الخليج بمعدل يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رحلة سنوياً، وهو رقم قياسي بالنسبة لأي نوع من السفن ولأية منطقة في العالم . وتجدر الاشارة الى أن الناقلات تأتي الى منطقة الخليج فارغة لتأخذ حمولتها من الزيت ، فهي اذن نظيفة نسبياً ، الأمر الذي يجعل صيانتها أسهل وأسرع مما لو كانت أفرغت حمولتها لتوها . هذا بالاضافة الى أن أسطول ناقلات الزيت العربية قد أخذ ينمو بشكل حتم وجود مرافق لصيانة قطعه واصلاحها .

ومع أن خط سير الناقلات قد تحول ، الى حد ما ، بعد اعادة فتح قناة السويس ، الا أن البحرين ظلت المكان الأفضل نظراً لموقعها الجغرافي الذي يتوسط منطقة الخليج حيث تقوم أهم مناطق انتاج الزيت العالمية .

٢



١



٣

بدء أعمال الانشاء

تقوم ساحة بناء السفن واصلاحها والحوض الجاف بداخلها على بقعة ، مساحتها خمسون هكتاراً ، أي نحو نصف مليون متر مربع ، استصلحت جميعها من البحر على شاطىء جزيرة المحرق . وقد بدأت أعمال الحفر والاستصلاح الى الجنوب من قرية « الحد » وقد نفذ المشروع حسب الخطة المرسومة وتمت أعمال الاستصلاح واقامة الكثير من المرافق خلال العامين الأولين ، وهي فترة قصيرة اذا ما قورنت بما تم خلالها من انجازات ، ابتداء من استصلاح الأرض التي كانت مغمورة بمياه البحر ومروراً باقامة عدد من المباني والمنشآت وانتهاء بتركيب الروافع والمعدات والأجهزة واقامة العديد من المرافق على اختلاف أحجامها وأشكالها ووظائفها . وفي ١٥ مايو ١٩٧٧ كان الحوض الجاف جاهزاً ومليئاً للمرة الأولى بماء البحر . وفي أكتوبر من العام نفسه ، أدخلت الناقلة الايطالية « امبروسيانا — Ambrosiana » وحمولتها ٢٣١٠٠٠ طن الى الحوض حيث كانت الأولى .

ان اختيار الموقع على شاطىء جزيرة المحرق قد جاء بعد دراسة مستفيضة قامت بها مجموعة انجلو — برتغالية تضم عدداً من الخبراء والمستشارين . وبطبيعة الحال أخذ بعين الاعتبار جميع الأمور المتعلقة بالنواحي الطبوغرافية والجيولوجية والبحرية وتوفر الخدمات الأخرى المساندة وتكاليف الانشاء والأيدي العاملة وغير ذلك .

١ — سعادة الشيخ خليفة بن سلمان بن محمد الخليفة ، رئيس مجلس ادارة الشركة العربية لبناء واصلاح السفن ، ووكيل وزارة التنمية والصناعة في البحرين .

٢ — السيد أحمد عبد الله ، رئيس العلاقات العامة في الحوض ، يشير الى لوحة في مدخل مبنى الادارة ، عليها شعار الشركة العربية لبناء واصلاح السفن وتحيط به أعلام الدول العربية المساهمة في الشركة .

٣ — الناقلة « سنكلير » وتبلغ حمولتها الاجمالية ١٨٩٠٠٠ طن أثناء صيانتها في الحوض الجاف ، في الأسبوع الأول من يناير ١٩٧٩ .

أسري خلال عام ١٩٧٨

عندما افتتح سمو أمير دولة البحرين الحوض رسمياً في ديسمبر من ١٩٧٧ ، كانت هناك قائمة بأسماء عدد من الناقلات التي طلب أصحابها حجز أماكن لها لصيانتها في مرافق « أسري » . وكان المسؤولون يتوقعون امكان صيانة ستين ناقلة فقط كل سنة من السنوات الثلاث الأولى ، لكن الاقبال المتزايد على الحوض شجع المسؤولين على مضاعفة الجهود مما أدى الى صيانة مئة ناقلة خلال عام ١٩٧٨ فقط . وهو العام الأول الذي بدأ فيه العمل في صيانة السفن . وقد تمت أعمال الصيانة في الحوض الجاف نفسه « البركة » والأرصفة الأربعة الأخرى . وتخطط ادارة الشركة لاستقبال السفن لمختلف أعمال الصيانة . والجدير بالذكر أن أعمال الحوض في الوقت الحالي تنتظم في ثلاث مراحل هي :

أولاً : الارساء الجاف وتنظيف الهيكل الخارجي للناقلة والقيام بأعمال الدهان اللازمة .

ثانياً : القيام بجميع الأعمال الميكانيكية واجراء الفحص الدوري وأعمال التنظيف .

ثالثاً : صيانة الأجزاء الميكانيكية الكبيرة والهيكل العام للناقلات .

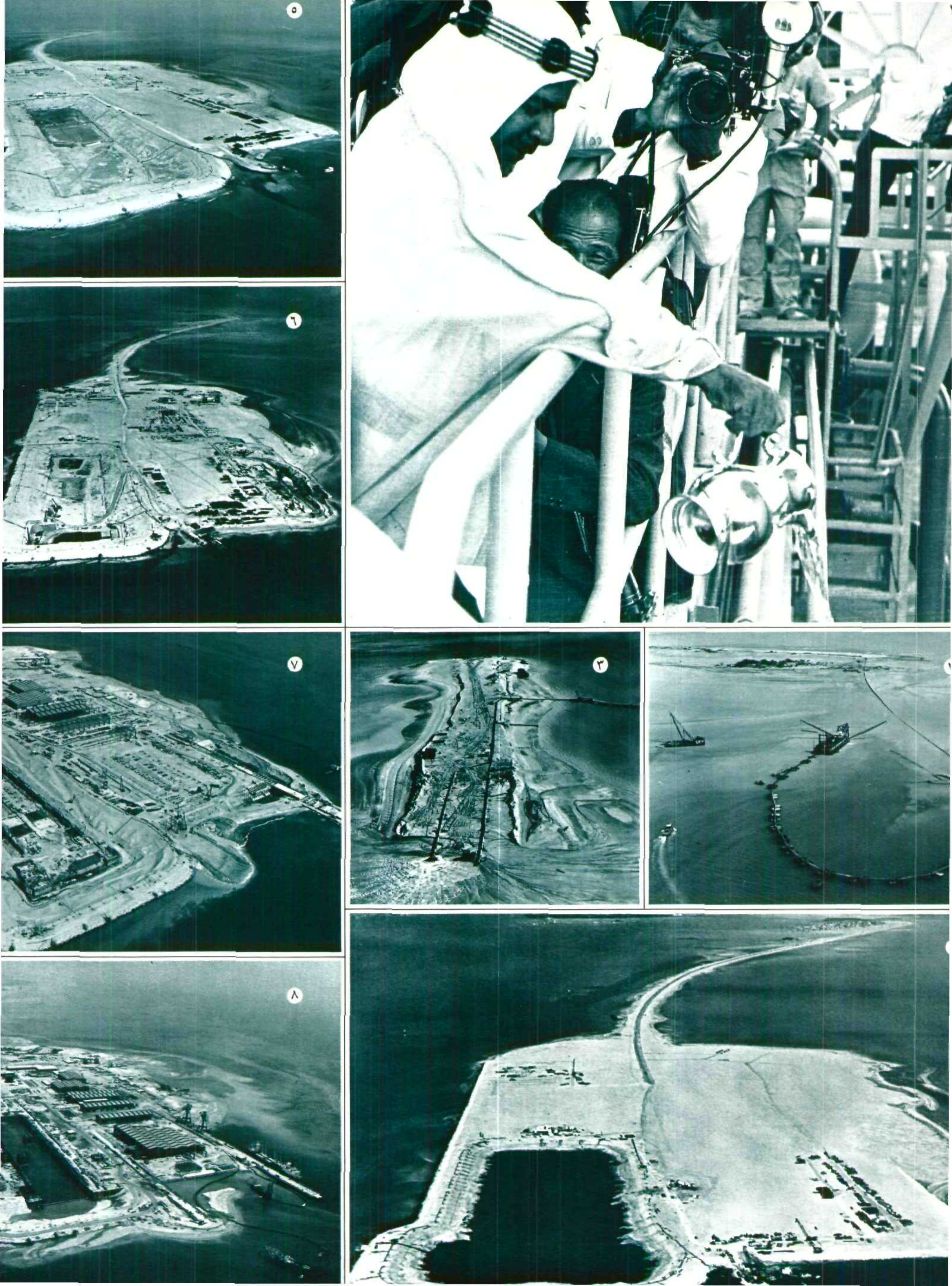
هذا مع العلم بأن « أسري » تقوم بصيانة مختلف أنواع ناقلات الزيت والسفن التجارية والمراكب .

ان أول ما أدخل الى الحوض الجاف العوامة « طرطروقة » وهي منصة بحرية متنقلة تابعة لأسري ، وتبلغ حمولتها الساكنة عشرة آلاف طن . وكان ذلك في ٢٣ سبتمبر ١٩٧٧ . أما أكبر ناقلة أدخلت الحوض فهي الناقلة « شط العرب » التي تبلغ حمولتها الاجمالية ٣٨٦٠٠٠ طن وكان ذلك في ٢٦ يناير ١٩٧٨ . كما بلغ متوسط الحمولة الاجمالية للناقلات التي دخلت الحوض للصيانة خلال العام الماضي ١٨٩٠٠٠ طن . وفي السابع من ديسمبر ١٩٧٨ اجتمع في « أسري » خمس ناقلات للصيانة دفعة واحدة كانت واحدة منها في الحوض الجاف ، أما الأربع الأخرى فقد احتلت الأرصفة الأربعة الأخرى . وقد بلغ مجموع حمولة هذه الناقلات أكثر من مليون طن .

ميزات أسري وحوضها الجاف

يطلق اسم الحوض الجاف ، اصطلاحاً على جميع مرافق « أسري » ، لكن الحوض الجاف في الواقع عبارة عن بركة مستطيلة الشكل طولها ٣٧٥ متراً وعرضها ٧٥ متراً وعمقها ١٢ متراً . وهذه البركة ، أو هذا الحوض له باب ضخم طوله بعرض الحوض وارتفاعه بعمق الحوض أي أنه عبارة عن جهة كاملة للحوض ، أما سمك هذا الباب فيبلغ ٦,٥ متراً ، بينما يبلغ وزنه حوالي ١٣٠٠ طن ، وهو مصنوع من صفائح الفولاذ المقواة من الداخل بدعائم قوية تستطيع تحمل ضغط الماء عليه عندما يكون الحوض فارغاً . وللباب محركات ضخمة تتحكم في رفعه وانزاله .

عندما يراد ادخال الناقلة الى الحوض تفتح صمامات الباب الستة فيتدفق الماء الى الحوض الجاف « أي البركة » . وعندما يمتلىء بالماء يفتح الباب فتدخله الناقلة ببطء ، ثم يرفع الباب فيشكل سداً بين الماء في الحوض والبحر ، وتقف الناقلة على دعائم من الاسمنت مغطاة بطبقة من الخشب الصلد . فيرتكز أسفل الناقلة في تجاويف الدعائم بينما يكون أسفل الدعائم على أرض الحوض . بعد ذلك تدار المضخات الضخمة لتفريغ الحوض من الماء . وفي الحوض ثلاث مضخات لنفس


٥
٦
٧
٨
٣

١ – سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ، أمير دولة البحرين ، يصب ماء من زمزم في الحوض الجاف إيذاناً بافتتاحه رسمياً . وكان ذلك يوم ١٥ ديسمبر ١٩٧٧ ،وهو اليوم الوطني للبحرين . وقد حضر حفل الافتتاح وزراء النفط العرب الأعضاء في منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول (أوابك) وعدد من المهتمين بشؤون الملاحة واصلاح السفن .

٢ – في نوفمبر ١٩٧٤ ، بدأت أعمال الحفر لاستصلاح موقع الحوض ومرافقه .

٣ – وخلال بضعة أشهر ظهر الموقع رمالا جرفت من أرض البحـــر .

٤ – وقبل أن يمضي عام على مباشرة أعمـــال الاستصلاح بدأت معالم الحوض تأخذ شكلها حسب المخطط المرسوم .

٥ – وفي فبراير ١٩٧٦ كانت أعمال الحفر قد أنجزت وبدأ العمل في اقامة بعض المنشآت والمرافق .

٦ – واستمر العمل في وضع الأسس والقواعد وأقيم العديد من المباني والورش .

٧ – وفي اكتوبر ١٩٧٦ وضعت أسس الحوض الجاف وقواعده ، وصبت بالأسمنت المسلح .

٨ – وفي مايو ١٩٧٧ أنجز العديد من المرافق ، وظهر الحوض الجاف بجدرانه القوية وملىء بالمـــاء .

٩ – وفي أكتوبر ١٩٧٧ ، أدخلت النـــاقلة « أمبروساينا » الى الحوض الجاف لاجراء بعض أعمال الصيانة عليها وكانت أول ناقلة دخلت الحوض .

١٠ – وفي ٢٦ يناير ١٩٧٨ ، أدخلت الى الحوض الناقلة « شط العرب » التي تبلغ حمولتهـــا الاجمالية ٣٨٦٠٠٠ طن ، وهي أضخم ناقلة جرت صيانتها في الحوض حتى نهاية عـــام ١٩٧٨ .

١١ – وفي ٧ ديسمبر ١٩٧٨ ، كان عدد السفن الراسية في مرافق الحوض الجاف ، خمس سفن تربو حمولتها الاجمالية على مليون طن . كما تشاهد في مقدمة الصورة ناقلة زيت وهي تغادر الحوض بعد أن تمت صيانتها .













الفنيون منهمكون في صيانة احدى الناقلات الضخمة وهي قائمة في الحوض .



اصلاح مروحة الناقلة ، أو الداسر المسير لها ، عمل فني يحتاج للكثير من الخبرة والمعرفة .

الغرض طاقة كل منها ٣٦٠٠٠ متر مكعب في الساعة . وفي خلال ساعتين ونصف الساعة من تشغيلها يفرغ الحوض من الماء وتصبح الناقلة قائمة على الدعائم القوية في الحوض الجاف ، ويبدأ العمال والفنيون والمهندسون العمل ، كل فيما يخصه . والحوض ، في مثل هذا الحجم ، يستوعب ناقلة ضخمة تصل حمولتها الاجمالية الى نصف مليون طن ، أي ما يوازي ٣ ٧٥٠ ٠٠٠ برميل .

هناك على مسافة من الحوض الجاف أقيم رصيفان مزدوجان يشكل كل منهما رصيفين مستقلين .

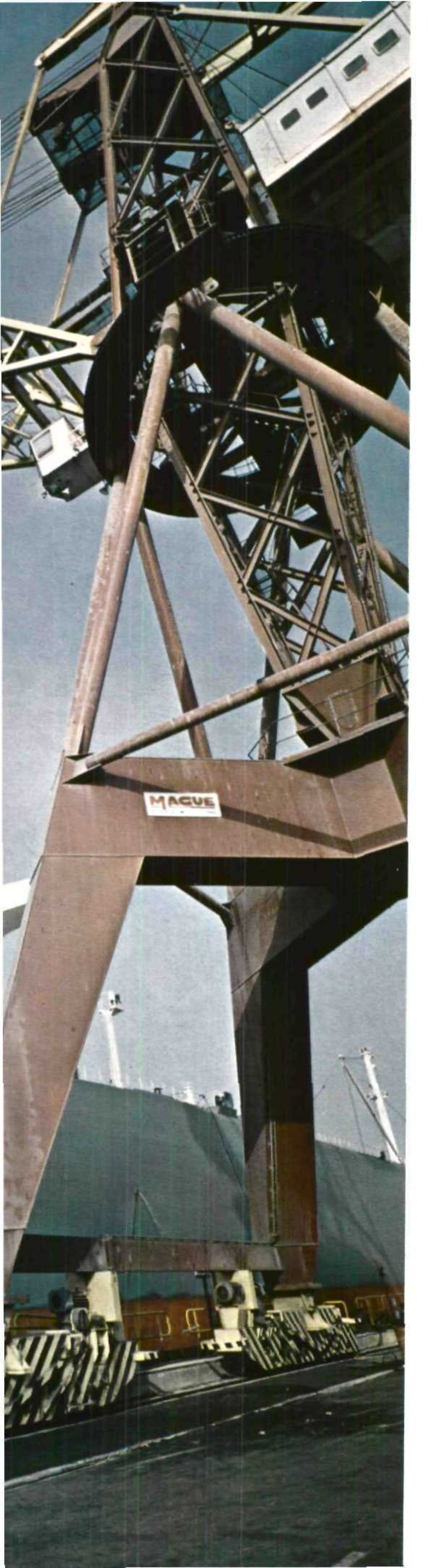
ويمكن استخدام هذه الأرصفة لصيانة الناقلات الضخمة جداً التي لا تحتاج صيانتها لادخالها في الحوض الجاف كما أنه يستعمل كفرضة لتحميل المواد وانزالها . وقد عمقت المنطقة المغمورة مقابل الحوض الجاف وحول الأرصفة الأربعة لنحو عشرة أمتار ، الأمر الذي يسمح للناقلات التي تؤم الحوض والأرصفة بالتحرك والدوران بطريقة مأمونة .

وقد زود الحوض بستة قوارب لقطر الناقلات وارسائها وادخالها في الحوض واخراجها منه ، وتبلغ قوة كل منها ٢٤٠٠ حصان آلي .

ومن المعدات المهمة المتوفرة في الحوض خمس رافعات ضخمة متحركة . اثنتان منها تعملان على جانبي الحوض الجاف ، طاقة الأولى مئة طن ، والثانية ٣٠ طناً ، والثلاث الباقية ، وطاقة كل منها ١٥ طناً ، تعمل على الأرصفة الأربعة الأخرى . وجميعها تتحرك على قضبان ضخمة أقيمت على شكل خطوط السكك الحديدية . وتستطيع هذه الروافع الخمس تغطية الحوض الجاف ونحو ٩٠ في المئة من منطقة العمل خارج الحوض الجاف . ويتبع للحوض كذلك رافعة عائمة تبلغ طاقتها ٢٠٠ طن .

هناك على اليابسة وعلى مقربة من الحوض الجاف والأرصفة ، أقيمت ورشة ميكانيكية كبيرة تبلغ مساحتها ٣٠ دونماً « ٣٠ ٠٠٠ متر مربع » مزودة بأحدث الأجهزة والأدوات والمعدات اللازمة لمختلف أعمال الصيانة ، كما تحتفظ « أسري » في مخازنها في منطقة الحوض بعدة أنواع من الأصباغ والزيوت والشحوم التي تستخدمها مختلف الناقلات لتتزود منها بما يناسبها وما يلزمها .

ويتبع للحوض أيضاً ناقلة كبيرة لتنظيف صهاريج السفن تدعى « الشاطىء الأبيض — White Beach » ، وتبلغ



١

١ – تعتبر الرافعات من أهم معدات الحوض الجاف وهي متحركة على خطوط تشبه خطوط السكك الحديدية وتغطي نحو ٩٠ في المئة من مساحة الحوض والفرض التابعة له .

٢ – تقف الناقلات في الحوض على قواعد صلبة تصف متقاربة لتحمل الناقلة على ضخامتها وثقلها .

٣ – ناقلة ضخمة تقف في الحوض الجاف وقد أفرغ الماء منه ، وبدأت أعمال الصيانة عليها .

حمولتها الاجمالية أكثر من ٣٣٠٠٠ طن . وكانت تستخدم من قبل ناقلة للزيت الخام ثم جرى تحويلها للغرض الحالي . وبامكانها لدى التشغيل ان تشفط نحو ١٢٠٠ طن في الساعة ، من الماء المستخدم في تنظيف الناقلات ونفاياتها . وهذه الناقلة « الشاطىء الأبيض » مزودة أيضاً بأجهزة لفصل الزيت عن الماء ثم التخلص من الماء بأقل نسبة ممكنة من مخلفات الزيت اذ انها معدة لمكافحة التلوث أيضاً . وهي بخزاناتها الواسعة يمكنها الاحتفاظ بالخام المستخلص ، نتيجة لتنظيف الناقلات ليستعمل كوقود أو يضخ الى مرافق التخزين المقامة على اليابسة . وبها أيضاً خزانات تستوعب نحو ٧٢٠٠ طن من الشوائب والنفايات والفضلات ونحو ٩١٠٠ طن من مياه الصابورة الذي تستخدمه الناقلات لحفظ توازنها أثناء رحلاتها وهي فارغة . كما أن من مهمة الناقلة « الشاطىء الأبيض » إمداد الناقلات ، التي تحت الصيانة ، بالماء الحار والبارد والبخار وبالتيار الكهربائي وبأدوات التنظيف اللازمة لمرافقها .

الموظفون

يعمل في « أسري » حالياً قرابة ١٢٠٠ موظف ، ينتمون الى ١٧ جنسية . وتبلغ نسبة العرب منهم ٤٤ في المئة وقد تصل الى ٥٥ في المئة بنهاية عام ١٩٧٩ .

تدريب الموظفين

من أهداف الادارة في الشركة أن تجعل من الحوض الجاف معهداً لتدريب العاملين العرب في مجال الصناعات الثقيلة . فبرنامجها التدريبي التطويري يرمي الى تعريب جميع ما يتعلق بالحوض من أعمال ومصطلحات صناعية وغيرها وذلك تمهيداً لتولي الموظفين العرب حوالي ٩٠ في المائة من الأعمال الادارية والفنية في الشركة خلال عشر سنوات . لذلك فالتدريب يسير بشكل عام في مختلف الاتجاهات المهنية والحرفية والفنية والادارية. ومن أجل ذلك أيضاً شكلت دورات تدريبية تكاد تشمل مختلف المهن والاعمال الحالية .

فقبل ثلاثة أعوام ، وبينما كان الحوض لا يزال في طور الانشاء ، أسست في المحرق ، مدرسة للتدريب على أعمال اللحام والسمكرة والميكانيكا والأنابيب . وعندما افتتح الحوض، انتقل المتدربون الى مركز التدريب الجديد الذي أقيم في الحوض على مقربة من الأعمال التي سيمارسها المتدربون بعد انهاء فترة تدربهم . كما أن قربهم من مواقع العمل يسمح لهم بتطبيق ما يتدربون عليه مباشرة، وهذا التطبيق عبارة عن تدريب وعمل وخبرة يمارسونها ويكتسبونها بينما هم لا يزالون في مرحلة التدريب . وقد أقام مركز التدريب خلال العام الماضي ، ١٩٧٨ ، عدة دورات تدريبية اشترك فيها متدربون جدد بالاضافة إلى الموظفين العاملين في الحوض . وينقسم برنامج التدريب الى ثلاثة أقسام :

التدريب المهني : ويشتمل على أعمال الميكانيكا والكهرباء واللحام والدهان والسباكة والالكترونات وتشكيل المعادن . ويستغرق التدريب في هذا القسم ، نظرياً وعملياً ، حوالي أربع سنوات . ويشترط في المتدرب الملتحق بهذا البرنامج أن يكون قد أتم دراسته الابتدائية على الأقل حتى ينخرط في بعض الأعمال ، أو أن يكون حائزاً على الثانوية الصناعية أو العامة .

التدريب على الادارة المتوسطة :

ويتكون من فرعين : **الاداري** ، ويشمل أعمال المحاسبة والتخزين والتسويق وادارة شؤون الموظفين وغيرها من النواحي الادارية . **والفني** ، ويشمل الهندسة البحرية وبناء السفن والأعمال الميكانيكية والكهربائية ، من ناحية فنية ، والارشاد والملاحة البحرية .

وينقسم الملتحقون بهذين الفرعين من التدريب الى مجموعتين : الأولى للجامعيين الحاصلين على درجة بكالوريوس علمي أو أدبي مع خبرة سنتين ، والثانية لمن أتموا دراستهم الثانوية فقط أو ما يعادلها . وأقل مدة تدريبية لأي من هذين الفرعين ١٨ شهراً ، وقد تمتد الى بضع سنوات حسب مجال تخصص المتدرب والعمل

٢



٣



الذي سيقوم به . فمثلاً القبطان قد يحتاج لنحو سبع سنوات أو أكثر حتى يتقن عمله ويبلغ مستوى الكفاءة المطلوبة .

التدريب العام : ويشمل مواضيع عامة مثل اللغة الانجليزية ، والرياضيات المبسطة ، وحسابات المقاييس ، والاسعاف الأولي ، والسلامة الصناعية ، والأمن الصناعي ، والوقاية من الحرائق ومكافحتها ، وأعمال السكرتارية . ويتوقع أن تعقد دورات للتدريب على تشغيل الرافعات المتحركة .

١



والتدريب في هذا القسم عبارة عن برامج تشتمل على مجموعات متنوعة من المواضيع ، ومدة التدريب تتفاوت ما بين دورة وأخرى .

يوجد في المركز في الوقت الحاضر نحو ١٥٠ متدرباً ، وبالاضافة الى التدريب في المركز فانه يرسل عدداً من الملتحقين به الى خارج البحرين لاتمام تدربهم ولاكتساب مزيد من الخبرة .

الشركة من الناحية الادارية

تسجلت الشركة في البحرين عام ١٩٧٤ باسم الشركة العربية لبناء واصلاح السفن — Arab Shipbuilding and Repair Yard « أسري — ASRY » . وكان أول رئيس لمجلس ادارتها سعادة السيد ماجد الجشي ، وزير الأشغال

٢

٣



والطاقة والماء في البحرين . وفي يناير ١٩٧٨ خلفه سعادة الشيخ خليفة بن سلمان بن محمد الخليفة ، وكيل وزارة التنمية والصناعة في البحرين . وطبقاً لاتفاقية خاصة ، تقوم شركة ليزناف — Lisnave البرتغالية ، وهي أكبر شركة لاصلاح الناقلات الضخمة في أوروبا وأكثرها خبرة ، بادارة الحوض والاشراف عليه . كما تقوم شركة « نافلنك — Navlink » بالاشراف على الخدمات الفنية وتعمل كحلقة ارتباط بين « أسري » في البحرين وليزناف في البرتغال .

انشاء شركة جديدة

نظراً للتنافس القائم بين أحواض اصلاح السفن في مختلف أنحاء العالم ، فقد رأت منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط « أوابك » انشاء شركة أخرى مستقلة باسم « شركة خدمات التسويق للشركة العربية لبناء واصلاح السفن — Asry Marketing Services » ، وجعلت مركزها لندن ، وذلك بقصد تعريف أصحاب الناقلات في مختلف أرجاء العالم ، بأسري وما تقدمه من خدمات . وقد أقامت الشركة الجديدة « أسريمار —

١ — فرن خاص بصهر المعادن وتبدو بداخله قطعة لأحد المحركات المزمع اصلاحها .

٢ — تحتوي ورش الحوض على معدات حديثة أحضرت من مختلف الأقطار الصناعية ، من أوروبا وأمريكا واليابان .

٣ — جانب من ورشة كبيرة خاصة بقص الصفائح والأنابيب ولحمها حسب المواصفات المطلوبة لصيانة السفن .

٤ — أحد فصول التدريب حيث يتلقى المتدربون العرب دروساً نظرية وعملية في مختلف أعمال صيانة الناقلات والسفن .

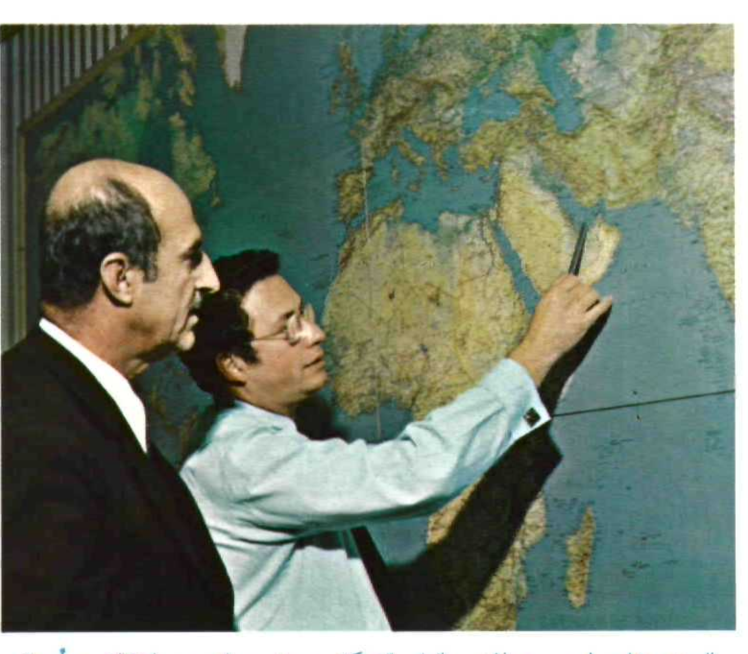
٥ — جانب من احدى الورش الحديثة في الحوض حيث تجرى بعض أعمال الصيانة .

٦ — تشد الناقلات لدى وقوفها في الحوض بسلاسل ضخمة قوية لتبقى ثابتة دون حراك ما دامت قائمة في الحوض الجاف .

٧ — فني يقوم بصيانة كرسي تحميل لأحد المحركات الضخمة .



منظر جوي لمشروع «أسري» تظهر فيه احدى الناقلات الضخمة أثناء صيانتها في الحوض الجاف .



السيد ميشادو لوبس – المدير العام للشركة ، يشرح لمندوب القافلة ، أهمية موقع الحوض بالنسبة للناقلات أثناء غدوها ورواحها الى منطقة الخليج من مختلف بلدان العالم .

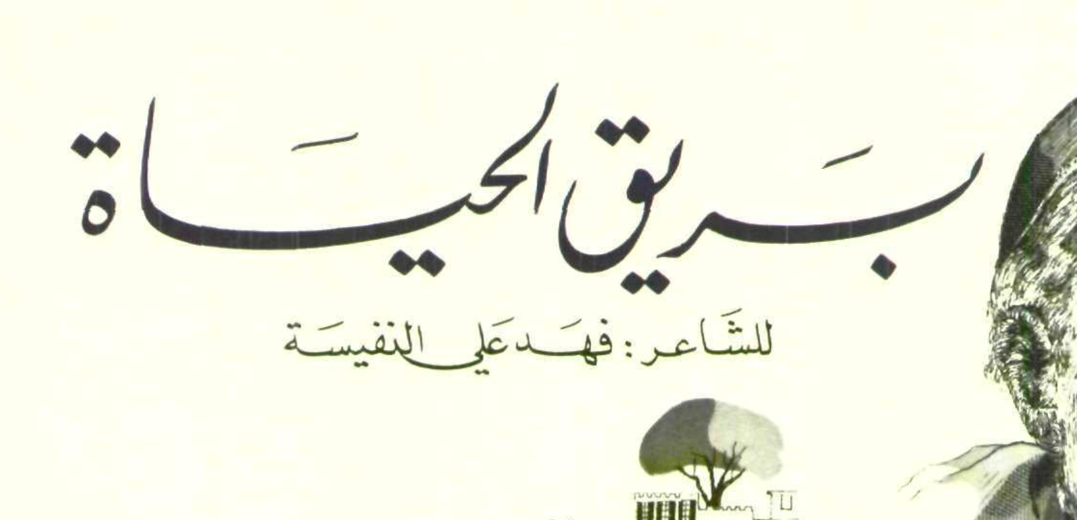
Asrymar » وكالات لأسري في ١٤ قطراً تمتلك ٩٧ في المئة من الناقلات الضخمة العالمية . كما عهد الى المستر جيفورد روسي وهو أحد الخبراء الذين رافقوا مشروع « أسري » منذ بدايته ، برئاسة مجلس ادارة أسريمار .

ومما لا شك فيه أن توفير الزبائن لأسري مهمة تحتاج الى جهد كبير ، وخاصة في الوقت الحاضر ، حيث يقوم تنافس شديد في مختلف مجالات اصلاح السفن والناقلات سواء من ناحية الأسعار أو الوقت الذي تستغرقه أعمال الصيانة أو الجودة والنوعية . وبطبيعة الحال سيظل موقع « أسري » عاملاً مميزاً لها عن سائر أحواض السفن الأخرى في العالم .

وبعد ، فقد كانت البحرين مركزاً له مكانته في مجال اصلاح السفن التجارية وصيانتها ، وتزويد المراكب العاملة بمنطقة الخليج بالكثير مما تحتاج اليه من زاد ووقود وماء . وها هي اليوم وبإقامة الحوض الجاف فيها تستعيد مركزها من جديد ، وأخذت أعمال الصيانة البحرية وجهاً آخر أوسع وخاصة في مجال ناقلات الزيت التي تؤم منطقة الخليج لنقل الزيت العربي الى الأسواق العالمية . ولا يستبعد أن تصبح البحرين ، في المستقبل ، من البلدان التي يعتمد عليها في صيانة السفن البحرية على اختلاف أحجامها وبالتالي في بنائها . وهذا الأمر يحتاج ، بلا شك ، الى جهد متواصل وعمل دؤوب .

والبحرين ، اليوم ، وهي تتطلع الى المستقبل بطموح وأمل ترجو أن يكون انشاء هذا الحوض الجاف فيها من احدى الدعائم للاقتصاد والتصنيع العربي الذي ينتظر دوره الفعال ، وأن تكون « أسري » معهداً للمتدربين على الصناعات الثقيلة ليس لأبناء البحرين فقط وانما أيضاً لجميع أبناء الأقطار العربية وخاصة المشاركة في الحوض وهي : المملكة العربية السعودية ، والعراق ، والكويت ، وقطر ، ودولة الأمارات العربية المتحدة ، وليبيا ، والبحرين .

إبراهيم أحمد الشنطي/ هيئة التحرير
تصوير : داف دانتج



بريق الحياة

للشاعر : فهد علي النفيسة

أيّ خَطْبٍ قد دهاهْ ... أوهنَ العجزُ خطاه
ما لهذا الشيخِ يبكي ... باتَ موفوراً ضناه
كانَ بالأمس يغني ... بأناشيد صباه
كان مسروراً بهيجاً ... وفخوراً بقواه
ملأ الأرض جهاداً ... وسما نحو علاه
وحوى البرَّ رجاءً ... وكذا البحرَ حواه
وجنى ربحاً فظنَّ ... أنَّ للخلدِ جناه
وبنى داراً بجهدٍ ... وديارا بهواه
فأحبَّ العيش حتى ... خانه حبّ الحياه
ظنَّ عهدَ الشيبِ يحكي ... في الرِّضى عهدَ صباه
فاذا بالشيخِ يبكي ... حسرةً مما يراه
وَهنتْ رجلاه حتى ... أثقلتْ حملَ عصاه
وسرى فيه ارتعاش ... كشفتْ عنهُ يداه
وغشا عينيهِ ليل ... ويلهُ مما غشاه
ودهى أذنيهِ وقر ... زاد فيما قد دهاه
ووهى صوته حتى ... لَم يبنْ عن غيرِ «آه»
أيها الشيخُ تجلّدْ ... قاربَ العيش مداه
هتفَ الشيخُ : ولكن ... ثقلت عندي خطاه
قلتُ : أصبرْ وتحمّل ... أنتَ مَنْ حبّ الحياه
لمَ لمْ ترجُ وفاةً ... آنفاً نعم الوفاه ؟!
لمَ لمْ ترحلْ ولمّا ... يعلن الشيبُ ضناه ؟!
قالَ : لمْ أعطَ اختيارى ... آهِ لوْ أعطيتُ .. آه
فاذاً لاخترتُ موتي ... ما تخيرتُ عداه
قلتُ : لَمْ تعطَ ولكن ... لَمْ تشأ غيرَ الحياه
فامضِ فيما شئتَ اني ... سوف أمضي في سواه

فهد علي النفيسة / مكة المكرمة



الأدب العربي والآداب العالمية

بقلم : الدكتور علوي جميل علوش

يبالغ المؤرخون والنقاد العرب في تصوير مدى تأثر الادب العربي بالآداب العالمية . فهم ينسبون الى احتكاك العرب بغيرهم من الأمم كل تقدم فكري أو رقي أدبي . ويحرصون على تلمس الصلات والروابط التي تصل ادبنا بغيره من الآداب . ولا يدخرون وسعاً في البحث عن هذه الصلات وتجسيمها وتحويلها الى جسور كبيرة تعبر من فوقها شتى العلوم والفنون وتنتقل شتى الملكات والعبقريات .

فنهضة الأمة العربية وتهيؤها لتقبل الدعوة الاسلامية الكريمة كان بفضل اتصالها بدولتي الفرس والروم ، عن طريق الرحلات التجارية التي كان تجار مكة يقومون بها في مواسم معينة . فقد احتكوا بمدنية الروم وحضارتهم واستفادوا من ذلك علماً وذوقاً وبنوا حضارة .

وكذلك يذكر المؤرخون ان الدولة العباسية بلغت ما بلغته من حضارة وأبهة وتبسط بفضل احتكاكها بالفرس واقتباسها من حضارتهم وأساليب معيشتهم وأنظمة حكمهم بحيث أصبح الخليفة العباسي بما يملك من دور وقصور وخدم وحشم كأنه احد اباطرة الفرس . وكان لهذا كله أثر على الحياة الشعبية ، ظهر في المأكل والملبس وشتى مظاهر الحياة الاخرى .

ويذكر المؤرخون ايضاً ان احتكاك العرب بالفرس واليونان حفزهم على ترجمة علومهم ونقل تراثهم . فتولد عن ذلك نهضة علمية في العصر العباسي لا تضاهى ، كان من اثرها ما كان من ازدهار علمي وتقدم حضاري ما برح يشعّ ويتألق حتى بدد ظلمات الجهل في الاندلس وفي اوروبا بعد ذلك .

وكذلك يذكّرنا المؤرخون ان نهضتنا الحالية كانت نتيجة احتكاك العرب بالغرب المتحضر اذ غزانا في مطلع النهضة بعلمه وثقافته وبني في بلادنا المدارس والمعاهد ودور العلم مما اسفر عن نهضتنا الحالية التي ما برحت في ارتفاع وصعود .

وقد بلغ بالمؤرخين شغفهم بنسبة كل فضل في تاريخنا الى الاحتكاك بالاجانب . ان عزوا نشوء علم النحو الى الاتصال باليونان او السريان ، وحاولوا ان يتلمسوا هذه

العلاقة بكل جد واهتمام ، وكأنهم يريدون ان يضعوا قانوناً على ان كل تقدم عربي مرده الى قوة اجنبية .

ونحن لا نريد ان نسجل هنا كل ما قاله المؤرخون والنقاد بهذا الصدد ، ولا ان نعدد المواطن التي برز فيها اثر هذا الاحتكاك واضحاً جلياً . فليس ذلك من شأننا . وكل ما نرمي اليه في هذا المقال تسليط الضوء على مبالغة المؤرخين في هذه المسألة بالذات .

ولا شك ان بعض هذه الآراء قد يكون صحيحاً بصفة عامة . أما ان نتلمس اثر الثقافة الاجنبية في كل همسة وكل لمسة فهذا مما يدعو الى الشك وقد يحتاج الى كثير من العنــاء لاثباته .

وأول ما يظهر لنا من هذه المبالغات حديثهم عن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع ، إذ نراهم يستعينون بأوهى الادلة لاثبات انهما كانا يتقنان اليونانية بالاضافة الى الفارسية . وقد حاول الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » ان يثبت هذا الرأي كل ذلك لان هذين الكاتبين أتيا بشيء جديد . وكأن الجدة لا يمكن ان تكون الا دخيلة .

ونلاحظ مثل هذا في محاولة الدكتور لويس عوض اثبات اتصال الشاعر الكبير ابي العلاء المعري برهبان دير الفاروس في اللاذقية وتعلم اليونانية عنهم . وهي الفرية التي كذبها الاستاذ محمود شاكر واثبت بطلانها في سلسلة مقالات نشرها في مجلة «الرسالة» التي كان يقوم على ادارتها المرحوم أحمد حسن الزيات ثم جمع هذه المقالات في كتاب عنوانه « اباطيل واسمار » .

وكأن الدكتور لويس عوض استكثر على الأمــة العربية ان تخرج شاعراً فيلسوفاً كأبي العلاء المعري فقدح زناد الفكر وصال وجال لتلمس حجة تثبت ان المعري كان يتقن لغة اجنبية للتدليل على ان عبقريته لم تكن اصيلة بل دخيلة مكتسبة .

والنقاد العرب حينما يتحدثون عن شوقي وحافظ ومطران يؤخرون حافظاً عن زميليه لأنه لم يكن يتقن لغة أجنبية . ثم يردون كل ملامح العبقرية والقوة والاصالة في شعر كل من شوقي ومطران الى معرفتهما للغة الفرنسية واتقانهما لها وتزودهما بالثقافة الفرنسية ثم لا يجدون في شعرهما غير ما هو مأخوذ عن الفرنسية مقتبس منها .

وهم اذا وازنوا بين عدة شعراء رجّحوا من بينهم كفة من كان له اطلاع على ثقافة اجنبية فرنسية كانت او انجليزية او المانية او يونانية . فهم اذا تحدثوا عن الاخطل الصغير قالوا انه كان يتقن الفرنسية فتأثر بشعرائها . ويستشهدون على عراقته في الفرنسية بترجمته لبضعة أبيات عن الفرنسية ، الله أعلم كيف تمكن من ترجمتها .

ولقد طعن أحد النقاد بالكاتب الكبير عبد العــزيز البشري لأنه لم يكن يتقن لغة أجنبية . فردّ عليه البشري رداً مفحماً وأثبت له ان كبار الادباء العرب لم يكونوا يعرفون لغة أجنبية . ومع ذلك فلا يستطيع ان يقدح في انتاجهم أو يطعن في منزلتهم الادبية احد .

وفي عصرنا الحاضر اخذ النقاد يهزأون من كل اديب لا يتقن لغة أجنبية . ليس ذلك فقط بل اخذوا يتندرون من كل من لا يستعمل اساليبهم وطرائقهم في الكتابة او يقلدهم في عاداتهم وتقاليدهم او يتشبث بنظراتهــم وأفكــارهم .

ان الثقافة الاجنبية عامل مساعد ولكنها ليست اساساً في تنشئة الادباء . ان الموهبة هي الاساس . ويبقى بعد ذلك الدربة والتمرين والاطلاع على مختلف الثقافــات والعلوم وعلى رأسها تراث الامة التي ينتمي اليها الشاعر او الأديب .

وصفوة القول اننا لا ندعو الى التزمت والتقوقع ولا ننادي بالعزلة والانقطاع . فالثقافة مهما كانت توسع الأفق وتعمق الفكر . ولكن لا نريد ان يصل بنا الوهم الى ان نظن في انفسنا العجز فنسخر من لغتنا وتاريخنا وقدراتنا ونقف على موائد الغرب فنعزو كل ابداع وعبقرية اليهم .

ان لنا تاريخاً ولغة وثقافة كما ان لنا شخصية متميزة .

ومن العبث ان نتنكر لها فنروح نبحث عن مصادر العبقرية في كل ما هو طارىء ودخيل علينا . على ان هذا لا يمنعنا ان نلتزم في الحديث عن الثقافة الاجنبية منهج العــدل والانصاف فلا ننكر اثرها كما لا نجسّم هذا الاثر ونضخم قوته وفاعليته . ومن الخير ان نتوخى الدقة والامانة في هذا السبيل فلا نسرف ولا نتزمت ونكون اقرب الى الحق والمنطق.

جميــل علوش – عمــان

دمعة وفاء على الشاعر
محمود أبو الوفا

بقلم : الأستاذ الغزالي حرب

طالعتنا الاهرام وغيرها بنبأ رحيل الشاعر المعاصر الموهوب الاستاذ محمود ابو الوفا الذي توفي صباح السبت ٢٨ من صفر ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٧ من يناير «كانون الثاني» ١٩٧٩ م عن ثمان وسبعين سنة ، قضاها شاعراً موهوباً ، له طابعه الخاص ، وشخصيته المستقلة ، وثروته الشعرية التي جمعت بين القديم والجديد . وقد ولد هذا الشاعر الصديق في مطلع القرن العشرين في قرية «الديرس» المصرية من اعمال مركز «أجا» التابعة للمنصورة . وبعد ان حفظ القرآن الكريم وفي الثانية عشرة من عمره تقريباً ، اصيب بمرض لم يجد معه الطب بدأً من قطع إحدى ساقيه .. فاذا هو عاجز عن مسايرة اترابه في الحركة والنشاط ، واذا امواج الحياة الرهيبة تتقاذفه في قسوة وخشونة ، وهو يحاول دفعها عنه بعكازته او بمجدافه الواحد الذي لا يقوم مقام المجدافين بحال ، ومن هنا شب وفي نفسه ما فيها من ثورة وقودها الحرمان ، الذي اوحى اليه ما اوحى من «انفاس محترقة» ، احتراق الذهب لا احتراق الشموع ، وامتدت ثورته الى كل شيء ، حتى والديه اللذين انجباه للبؤس والشقاء ، على حد تعبيره ، غير انه برغم هذه الثورة العارمة كان قلبه فياضاً بالمحبة الشاملة للحياة والاحباب الذين اراد لهم ان يبادلوه حباً بحب ، وصفاء بصفاء ، ووفاء بوفاء ولكن هيهات ..

أمشي وقلبي عـلى كفي أقول الا
من راغب في فؤاد صـادق حاني
يحب حتى كأن الارض ليس بهـا
الا زنـابق من آسٍ وسـوسان
وليس في الارض من بغض ولا إحنٍ
وليس في الارض من ظلم وطغيـان
وليس مـن فوقها الا سواسيـة
من الصحاب ومن اخـدان أخدان
فلا وربّك هـذا القلب ما التفتت
عين اليـه فيا للبائس العـاني

وما كان الشاعر في حاجة الى هذا القسم بالله ، قدر ما كان في حاجة الى الرفق بقلبه الانساني الودود ، الذي التمس الظل الظليل هنا وهنـاك دون ان ينعم براحة او سكن ، فعاد الى حيرته وقلقه :

في ذمة الله قلب لم يجد سكنا
يـأوى الى ظله فارتدّ حيرانـا
يا ليل ساهره ، يا احلامه احتشدي
يـا دمعـه واته سرّا واعلانـا
قد عـاد ينكرني قلبي وأنكـره
حيران في التّيه يمشي خلف حيران
كلاهما – وهو منقـاد لصاحبه –
حرب عليه ، هما الفـان ضدّان

ورحم الله صاحب ذلك القلب الانساني الكبير ، الذي عاش ما عاش وهو يريد ما لم يملك تحقيقه مصداقاً لقـوله :

أريد ومـا عسى تجدي «أريد»
على من ليس يملك ما يـريد ؟! !

وماذا كان هذا الشاعر الانسان يريد لغيره ؟ وماذا كان يريد لنفسه ؟ كان يريد التسامي بالغرائز الانسانية الى حيث السلام الشامل والمحبة السائدة بين جميع المخلوقات في هـذه الدنيا :

أريد من الغـرائز ان تسامى
فلا طمع يذلّ ولا حقـود
أريـد لهذه الدنيـا سلاما
اريـد الحب في الدنيا يسود
أريد لهذه الأنهـار تجري
هنا وهنـاك ليس لها حـدود
أريد لهـذه الأطيار تشـدو
كما يبغـي لها الصوت المديـد
أريد لهـذه الآمال تسمـو
وتزهـو في الحياة كما اريـد

وهيهات ذلك هيهات ، ما دامت الغرائز هي الغرائز ، وما دام في الدنيا ذئاب وحملان ، وما دامت الحقوق تؤخذ ولا تعطى ، وما دام الأمر أولاً واخيراً للأقوى لا للاصلح . ورحم الله صديقنا الشاعر الآخر محمد الاسمر :

اليوم ألسنة المدافع وحدهـا
مقبولة الدعـوات طاهرة الفم
فالارض للأقـوى على جنباتها
ليست لاتقـاها ولا للأعـلم
الجـو لم يملكه غير نسوره
والغاب لم يملكه غير الضيغـم

وذلك ما اعترف به شاعرنا الحالم الانسان محمود ابو الوفا غير مرة :

للغـاب يـا ابـن الغـاب
اهـرب فـداك اللـواح
تبـاً لضـعـف التـراب
أغـرى عليـه الريـاح
لـولاي في ذا الاهـاب
مـا هيض مـني الجنـاح

وكان شاعرنا غيوراً على وحـدة العروبة والاسلام ولنستمع اليه هنا وهو يحثهم على التعاون ليحققوا آمالهم وآمـانيهم :

يا عدّة الضاد الكرام الى العـلا
هيّـا فانكم رجـاء الضـاد
انتـم سواعدهـا الى آمالهـا
انتـم مراقيهـا الى الأمجـاد
وطني هـي الفصحى فكل بلادها
في مصر أو في الشام هنّ بلادي
هذا هـو الوطن الذي احيـا له
ولـه أوالي صـادقاً وأعـادي

وهو القـائل أيضاً :

أو ليس عـاراً يا بني الاسلام
ان تصبحوا في الارض كالايتـام
يقضى عليكم في الأمور وما لكم
في الحـكم من نقضٍ ولا ابـرام
كم جاءت الأيـام تفضي سرّها
لـكم فأعرضتم عن الأيـام

وكان رحمه الله يدعو الى التمسك بالأعمال قبـل الأقوال ، لأن الأعمال هي لغة التقدم والنهضة في عصرنا الحديث ، وفي هذا الصدد يقول :

ابنِ الرجـال وهيىء الأموالا
واطلب فلست ترى هنـاك محالا
الامـر ليس خطابةً وتفيهقـا
كـلا وليس عواطفا وخيـالا
لكنها الأوطـان إن تنهض بها
فاحشد لها الاعمال لا الأقوالا

ومما زاد شاعرنا ألماً على ألم — وهو يستعرض مواكب بعض الأعياد — انه افتقد ذكريات طفولته الحلوة ، ومعالم صباه الناضر ، فلم يجدها لدى أترابه وانداده الذين طالما لاعبهم ايام العيد في حرية الطيور المغردة ومرحها ، وقد امحت تلك المعالم ، وتعرت تلك الجياد ، واستحالت الآمال آلاماً ، والبسمات دموعاً :

اخبريني اين السرور تـوارى
وتـولى بفـرحة الاعيـاد ؟
اين ما كنت أجتلي العيد فيـه
من وجوه اللدات والانـداد ؟

عطلت تلكم الملاعب منـــا
وتعرّت سروج تلك الجيـــاد

ذلك غيض من فيض ما اراده الشاعر الانسان لغيره ، فماذا اراد لنفسه ؟ وهل وصل الى ما أراد قبل الرحيل عن دنيـــاه ؟

لقد اراد لنفسه غنى مادياً وغنى أدبياً متعادلين ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر :

أريد من الغنى حظـــاً كنفسي
كفاءً ليس ينقص أو يزيـــد

وأراد لنفسه حرية الطيور المنطلقة في الفضاء ، دون ما قيد أو عنـــاء فقال :

أريد العيش مثل الطير حـــراً
طليقـــاً لا تغللـــه القيـــود
أريد افك عن نفسي قيـــودا
يُقاد بها على الخسف العبيـــد

واراد لنفسه — على الرغم من هذه الحرية — الاعتصام بما تيسر من القيم الروحية التي قلم بها اظافير غريزة العـــدوان فيه :

علم الطير ذو الجناحين انّي
ان اطر لم اقـــع وراء مـــرادى
غير أني قلمت ظفري عن الشرّ
وآثـــرت شكّـــة الأمجـــاد
خلق ليس بالجديد علينـــا
وسجايـــا تليـــدة عن تـــلاد

وأراد الاعتماد على نفسه وموهبته في الوصول الى المجد ، برغم العجز الذي اصابه في احدى ساقيه معظم حياته ، ثم العجز الذي اصابه في عينيه في أخريات حياته ، ولنستمع الى شاعرنا رهين المحابس لا رهين المحبسين وكفى :

طولي ليالي البين لا تتقاصري
لأرى الزمـــان عناده وعنـــادى
اني طلبت المجـــد من عملي انا
لا من يد الأقدار والأجـــداد
قسماً بذات المجـــد إما نلتها
او نلت فيها فخر الاستشهاد

ذلك بعض ما اراده الشاعر لنفسه وهـــو صاحب الاحساس المرهف ، والمزاج الرقيق ، الذي يرق شعره ويرق . بل يشف ويشف ، حتى ترى « ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته » على حد تعبير الامام الجرجاني :

ربّاه ما هذا الشقاء؟ الى متى
سأظل اشكو في الحياة بضيقي؟
ما دمت قدّرت الشقاء على الفتى
فلما خلقت له مزاج رقيق؟

وما كان ارق مزاج هذا الشاعر الذي لم تدعه دنيـــاه يضحك لها — كما ينبغي — مصداقاً لبيته الرائع الجميل :

أحب اضحـــك للدنيا فيمنعـــني
ان عاقبتني على بعض ابتسامات

ولم تسع روحه الشاعرية سرائره واسراره ، فضاقت به او ضاق هو بها ، فأذن لها في العودة الى مستقرها حتى تريح وتستريح :

ضاقت مساحة روحي عن صرائرها
فيا لروحـــي كم تشقى بأسراري

وقد باحت روحه له أخيراً بسرّ الحياة ، فرحل عنها الى جـــوار الله :

نام عن سكرة الحيـــاة وقد جف
شراب الســـلوان فـــي أكـــوابه
بسمـــات الرضى عـــلى شفتيه
وشتـــات الرؤى عـــلى اهـــدابه
وبنات الغروب تسكب في أذنيه
موجـــات عـــوده وربـــابه
يا بنات الغروب قد نفض الليـــل
على الكـــون حالكات نقـــابه
احملي الراحـــل الغريب وسيري
بالزغـــاريد ســـلوة لاغترابـــه
وادخلي هيكـــل الفنون وابقيـــه
ســـراجاً يضـــيء فـــي محـــرابه

وسلام على الشاعر الانسان محمود ابي الوفاء الذي وقف جل حياته لخدمة الضاد ، رحمه الله وبلل ثـــراه •

الغزالي حرب / القاهرة

من حصاد الكتب

كتاب الملمع

لأبي عبدالله الحسين بن علي النمري

تحقيق وجيهة أحمد السطل

عرض: عبدالرحمن شلش

صدر هذا الكتاب عن مجمع اللغة العربية بدمشق في أواخر عام ١٩٧٦ م وهو لأبي عبد الله الحسين بن علي النّمري المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وتحقيق وجيهة أحمد السّطل التي نالت به درجة الماجستير من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٧٣ باشراف الدكتور السيد يعقوب بكر .

وقبل المضي في عرضنا للكتاب ، نتوقف قليلاً كي نلقي بعض الضوء على كتب التراث الذي يعتبر فكر الأمة ووجدانها سواء في ماضيها البعيد أو القريب .

إن كتب التراث لدينا وفيرة في مواضيع الأدب والعلم ، ولكن أضعاف هذه الكتب ما زال حتى الآن مخطوطاً ومحفوظاً في خزائن الكتب ، وفيه النادر والنفيس الذي لا يعرفه إلا القليل .

واذا كان الكتاب العربي قبل اختراع الطباعة بمئات السنين ينتشر بواسطة « النسخ » وهو ما أصطلح على تسميته قديماً باسم « الوراقة » ، فان كنوز الكتب المخطوطة الموجودة في مكتباتنا العربية يجب أن تحقق وتطبع من أجل احياء تراثنا العربي بفضل جهود باحثينا العرب وتقدم الطباعة في عصرنا الراهن .

وليست هناك لغة من لغات العالم زخرت بموروث الثقافة والفكر ونقلت من صنوف المعرفة والعلم مثلما نقلته وزخرت به لغتنا العربية في شتى المجالات مما كتبه وصنفه الأدباء والعلماء والدارسون ، وأسهموا به في دفع مسيرة الحضارة العربية التي تأثرت بها الحضارة الأوروبية .

وتحقيق كتب التراث العربي ونشرها أمر شريف القصد، كبير الأهمية، وعظيم الفائدة ، غير أنه مسلك صعب لا يقدر عليه الا من توفر لديه غزارة الاطلاع ، ووفرة العلم ، لأنه لا بد أن يكون بصيراً بالأساليب العربية في مختلف معانيها ، عارفاً بموارد الكلام ومصادره ، فطناً لصحيحه وفاسده ، صادق الحدس في موضع الخطأ والنقص ، الى جانب مشاركته في الكتاب الذي يحققه من خلال ربطه الحاضر بالماضي ، والنظر الى العمل نظرة شاملة تقوم على منهج علمي وتستند الى أسس موضوعية .

وبعد هذه الوقفة السريعة حول موضوع احياء كتب التراث ، نعود الى الكتاب الذي بين أيدينا ، لنتساءل : ما هي نوعية هذا المخطوط الذي يحمل اسم كتاب الملمّع ؟

في مقدمتها للكتاب تقول المحققة انه : « بمثابة معجم صغير لألفاظ الألوان في اللغة . نسقه مؤلفه بطريقته الخاصة التي تجمع بين ذوق الأديب في اختيار الشواهد، ودقة اللغوي في تبويب أفكاره ، وتنسيقها ، وتقصّيها . وكون المخطوط يتحدث عن مفردات معينة يجمعها إطار اللون ، ظاهرة جديرة بالدراسة وخاصة لأن معاجم المعاني التي صنفت في عصر المؤلف وما قبله اهتمت بوحدة الموضوع ، فكانت كتب الأبل والشاه والخيل معاجم متخصصة ، أو كانت أمثال المخصّص لابن سيده معاجم شاملة للكثير من الموضوعات . ولم تستأثر باهتمام أحدهم هذه الفكرة الطريفة ، وهي ان يجمع مسّميات الألوان ، كلاً على حدة ، ويستهلها بالحديث عن صفات كل لون ومؤكداته . »

وحول اسم الكتاب تقول المحققة : « ولعل تسمية المؤلف لكتابه بالملمع — على غرابتها — تحمل الكثير من الشحنة اللونية . فالتلميع لغة أن يكون في الخيل بقع تخالف سائر لونه وكأن المؤلف قصد الى تنوع الألوان في كتابه ، واستقلال كل لون منها بذاته استقلالاً يجعله مخالفاً للألوان الأخرى في نوعه ، وتوافقاً معها في تكوين لوحة لونية متجانسة ».

والنسخة التي حققتها الباحثة تعتبر فريدة « ليس سواها في العالم ، مما جعلنا نتحرى من تعارض النسخ ، واختلاف الروايات » .

ولكن ، من هو صاحب هذا المخطوط الفريد ؟ وفي ترجمة المحققة لحياة المؤلف تشير الى سيرته وأعماله .

اسمه وكنيته ولقبه

اسمه : الحسين بن علي ، وكنيته : أبو عبد الله . وأما لقبه : النمري فقد جاء فيه « النمري بفتح النون والميم وفي آخرها راء هذه النسبة الى : « نمر بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد » وقد زاد بعض المترجمين له كلمة : البصري نسبة الى البصرة بلدته .

ولادته ووفاته

لا يعرف تاريخ ميلاده ، فلم يذكره ، ممن ترجم له ، وأما تاريخ وفاته فقد أجمعوا على أنه توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، وقد نشأ في بيت علم ، وتعلم القرآن الكريم ، ونما وتعهد

نفسه بالاطلاع والمعرفة ، وتردد على حلقات العلم ، وعرف آداب العرب وأخبارهم وأيامهم .

مكانته العلمية

كان لغوياً أديباً ، وذكر الثعالبي أنه كان من صدور البصرة ، جمع العلم القوي القويم ، والحفظ الغزير ، كما اشتغل بالنحو ، وكانت له فيه جولات ، ولكنه كان لغوياً أكثر منه نحوياً. وأكثر مؤلفاته دلت على اهتمامه باللغة .

شعره

كل الذين ترجموا للنمري أوردوا نماذج من شعره ، ولعل بعضهم تحدث عن شعره أكثر مما تحدث عن ناحيته اللغوية والنحوية .

مؤلفاته

من مؤلفاته ، عدا كتاب الملمّع : « أسماء الفضة والذهب » و « الحلى » و « الخيـل » و « معـاني الحماسة » .

أما كتاب « الملمع » فهو نسخة خطيـة وحيدة – كما تقول المحققة – وموجودة في مكتبة بني جامع في استانبول ، وتوجد نسخة مصورة بالميكروفيلم عن النسخة الأصلية في معهـد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة .

ويقع المخطوط في ست وتسعين صفحة ضمت كل صفحتين منها في ورقة واحدة عند التصوير ، وفي كل صفحة عشرة أسطر تحوي سبعين كلمة في المتوسط ، وهو مكتوب بخط نسخي ، واضح ، جميل ، مشكول الى حد التنميق . وعلى الصفحة الأولى منه نجد: كتاب الملمع صنعه أبو عبد الله الحسين بن علي النمري رحمـه الله .

وقال النمري في مستهل كتابه : « هـذا كتاب ألّفناه ، لينظر فيه ابن العم ، والصديق الأحم ، فان رأى حسنة قال ، وان رأى سيئة أقال ، والكتاب اذا طال أملّ ، واذا قصر أخلّ فجعلناه بين ذينك مـع استكمال الافادة ، واستغراق الارادة . » (ص – ١) .

وقال : « ان الله عز وجل ، خلق الألوان خمسة : بياضاً وسواداً وحمرة وصفرة وخضرة ، فجعل منها أربعة في بني آدم : البياض والسواد والحمرة والصفرة . » (ص – ١) .

والأبواب الخمسة في الكتاب تدور حول هذه الألوان الخمسة التي خلقها الله سبحانه وتعـالى .

ومما جاء في ذكر البياض ، يقال : أبيض يقق – قال روءبة بن العجاج : « من الرجز » :

ومـاج عـذران الضحاضيح اليقق
وافترشت أبيض كالصبح اللهـق

وأبيض يقق ويقق – بفتح القاف وكسرها – شديد البياض ناصعه . واللّهق واللّهاق : الأبيض الشديد البياض كما هو موضح في الحاشية الأولى والحاشية الرابعة (ص – ٩) .

وجاء في ذكر السواد ، يقال : أسود حالك وحانك ، وهو أشد سواداً من حنك الغراب ومن حلكه . فحلكه : سواده ، وحنكه : منقاره . قال النابغة الذبياني : من « البسيط » :

فظل يعجم أعلى الروق منقبضـا
في حالك اللون صدق غير ذي أود

وقد جاء في الحاشة الثانية : الروق : القرن ، لأن الثور طعنه وحمله في قرنه . والصّدق : الصلب وقوله غير ذي أود : أي غير ذي اعوجاج . والشاعر يصف الكلب حين طعنه الثور بقرنه الصلب فتجمع على نفسه وانقبض وطفق يعض أعلى القرن الصلب المستوى محاولاً الهرب من هذا الموت المحتم .. (ص – ٦٠) .

ومما جاء في ذكره الحمره ، اذا كانت الناقة حمراء فهي كميت . قال حميد بن ثور : « من الطـويل » :

وعـاد مدمّاها كميتـا وشبّهت
كلوم الكـلى منها وجارا مهدّمـا

ومدماها : لونها الأحمر المشبوب بصفرة . والوجار : الحجر . يريد كلومها برئت وامتلأت ، واستوت بغيرها . فصارت كالوجار الذي تهدم فاستوى بالأرض – الحاشية السادسة (ص – ٩٣) و (٩٤) .

ومما جاء في ذكر الصفرة ، يقال أصفر فاقع وفقاعيّ . وقال ذو الرّمة : « من الطويل » :

وجيـد ولبّات نـواصع وضّـح
اذا لم تكن من نضح جاديه صفرا

والجادي : الزعفران ، وهو يصف عنـق الحبيبة وموضع القلادة من صدرها بالبياض الناصع . وقد يصفر متلوناً بطيب الزعفران الذي تتعطر به حيث كانت النساء يتطيبن بالزعفران .. (ص – ٩٧) .

ومما جاء في ذكر الخضرة ، يقال أخضر ناضر ، وأخضر باقل ، وأخضر حانىء وذلك في حالة اذا اخضرت الأرض والتف نبتها . وسئل أعرابي عن القرّاصة فقال : هي عشبة لها نور أصفر ، وهي نحو الأقحوانة حانئة الخضرة ، أي شديدة الخضرة .. (ص – ١٠١) .

وتحرص الباحثة المحققة على تزويد الكتاب بفهارس للأعلام ، وألفاظ الألوان ، واللغة ، والقوافي ، وأنصاف الأبيات ، والرجز ، والآيات والاحاديث ، والأمثال ، مع ثبت بالمراجـع التي اعتمدت عليها في تحقيقها وهي أكثر من مائتي مرجـع .

ويمكن أن نشير الى النتائج الطيبة التي أسفر عنها تحقيق المخطوط تحقيقاً يتميز بالدقـة والتعمق ، ونجملها في النقاط التالية :

أتى المؤلف بشواهد فريدة ، لشعراء مشهورين ، جمعت أشعارهم أو حققت دواوينهم ولم توجد تلك الأبيات فيهـا .

روى عدة من الأبيات رواية ، تبين من التحقيق والبحث أنها الرواية الصحيحة وأنها خير مما جاء في الشعر المعروف .

يعد تصنيف المؤلف للمفردات اللونية فريداً في بابه ، ينم عن سعة أفق صاحبه ، وعن قدرة كبيرة في الاستيعاب اللغوي ، ثم اعادة التنسيق والتبويب بأسلوب منظم ، دقيـق ، محكم .

ان المؤلف – على أهمية ما ذكره من ألفاظ الألوان وصفاتها ومسمياتها – لم يأت بها كلها . وما كان عمله عملاً استقصائياً لغوياً ، بقدر ما كان – وكما ذكر في مقدمته – عرضاً لمعارف ومفاهيم ، توصل اليها المؤلف اجتهاداً أو سماعاً ، فأراد أن يفيد بمعرفته . وتلك أبداً سجية العلماء .

تبين من دراسة الكتاب أن المؤلف من العلماء الأجلّة الذين أسهموا بنصيب في حركة التأليف اللغـوي .

لم يخل الكتاب من أخطاء ، يمكن ردّ بعضها الى خيانة الذاكرة ، أما بعضها الآخر فيمكن أن نعدّه مما تفرد به المؤلف من آراء لغوية ، وان كان قد خالف بها جمهـور اللغويين . فأقدميته ، ونقله عن أبي رياش تلميذ ابن دريد يؤهلانه لأن يكون له آراؤه الخاصة كما كانت للآخرين آراؤهم . ومـا زلت استغرب ندرة اشارة كتب اللغة الى هذا العالم اللغـوي الجليل .

والجدير بالذكر أن المحققة قد نالت درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة القاهرة عن موضوع : « التأليف في خلق الانسان من خلال معاجم المعاني » .

عبد الرحمن شلش – القاهرة ●

التموين في الزمن القديم

في عهد النبي يوسف عليه السلام

بقلم : الأستاذ بشرى أمين

وقع اختياري على كتابة هذا الموضوع « التموين في الزمن القديم » للمهرجان الأدبي الخامس الذي أقيم في الأبيض عام ١٣٦٢ هـ لأن الحالة الحاضرة آنذاك تلائمه وتدعو اليه(١) ، وهي كذلك اليوم . فمن الحكمة وسداد الرأي أن يدخر الانسان القوت في أوان الفرج والرخاء لينفعه في وقت الضيق والبلاء مما يتولد عن الحروب والمجاعات عادة . فيتيسر له اجتياز محنها العديدة بسلام واطمئنان . فالأمم المتحضرة القديمة وكذلك الأمم المتمدنة في هذا العصر تعرف نظام التموين عندما تخشى من ويلات حرب أو مجاعة ، فتلجأ اليه تتقي بادخار القوت أهوال المجاعات التي قد تؤدي الى حصد الكثير من البشر والمخلوقات الأخرى .

وفي هذا البحث عرض سريع موجز وفق الخطة التموينية واسعة النطاق التي كان يشرف على ادارتها في ذلك العصر البعيد صاحب فكرتها الأولى ومقترحها على فرعون مصر ، سيدنا يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام . معتمدين في التصدي بالكلام لهذه الخطة في المقام الأول على القرآن الكريم ثم التوراة الذي هو أقدم كتاب على وجه الأرض اطلاقاً والذي نزل القرآن مصدقاً له . وكلاهما ، القرآن والتوراة ، من كلام الله الأزلي القديم لو ما أصاب التوراة على أيدي بعض من أنزل عليهم من بني اسرائيل من التحريف والتبديل والتزييف وفق أغراضهم الخاصة ومنافعهم العاجلة . ومن أصدق من الله قيلاً أو أهدى سبيلا ؟ وكذلك قد اعتمدنا بخلاف هذين المصدرين المهمين على بعض المصادر التاريخية الأخرى .

كل من يتدبر معاني القرآن الكريم يعلم علم اليقين ان الله أراد بالعالم في عصر يوسف الصديق ، عليه السلام ، خيراً كثيراً حين سولت لاخوته أنفسهم الأمارة بالسوء القاءه في غيابة الجب ليلتقطه بعض السيارة ويبيعوه في مصر بثمن بخس دراهم معدودة . وكانوا فيه من الزاهدين . فلولا هذا الحادث المستهجن لانقرض على أغلب الظن جوعاً أكثر من على أرض مصر وما جاورها من أقطار في ذلك العهد السحيق مما حملته السنوات السبع العجاف التي خيمت بعد ذلك على مصر وما جاورها من البلدان . وأنزلت فيها الجدب والقحط .

والى هذا المعنى السامي أشار الله تعالى في حكم تنزيله ، مخاطباً يوسف مشيراً الى اخوته « **لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** » أي بأمر تآمرهم عليه والقائه في الجب بعد أن تمضي السنون ويستيقنوا بأنه هلك ، وهم لا يشعرون . أي بما يؤول اليه أمره من بعد من تمكين الله اياه في الأرض وجعله سبباً لانقاذ حياة الكثيرين من البشر من المجاعة .

وكان دافع أخوة يوسف ، الى هذا الكيد ، الحسد والغيرة لمحبة أبيهم له وايثاره عليهم . فأرادوا اهلاكه ليخلوا لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعد يوسف قوماً صالحين على حد زعمهم . فكان كيدهم خيراً عليه وعلى اخوته أنفسهم وعلى سائر أهل عصره بدل أن يكون شراً على أخيهم كما قصدوا وأرادوا وذلك حيث يقول الله تبارك وتعالى في القرآن المجيد مرة أخرى لتوضيح المعنى وتجلية الحكمة للمبصرين : « **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء** » . هذا فوق ما وهبه الله اياه من مقام النبوة الكريم والسلطة الواسعة الكاملة التي خوله فرعون اياها في أرض مصر .

وكذلك وقعت الاشارة الى هذا المعنى السامي الدقيق في التوراة على لسان يوسف مخاطباً إخوته بعدما عرفهم بنفسه ورأى في وجوههم الأسف والفزع مما اجترموا في حقه : « **لم** تفعلوا أنتم شيئاً سوى أن جعلكم الله سبباً ليرسلني قدامكم لاستبقاء حياتكم وليجعل الله لكم بقية في الأرض ونجاة عظيمة » .

(١) كانت كتابة هذا البحث في ابان الحرب العالمية الثانية .

وكان يوسف عليه السلام عندما خرج من سجن فرعون بأمره ليمثل أمامه ويعبر له عن الروٌيا التي أفزعته،ابن ثلاثين سنة ، وقال فرعون يقص على يوسف روٌياه : « اني كنت في حلمي واقفاً على شاطيء النهر ، فرأيت سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . فقال يوسف لفرعون : حلم فرعون واحد . أي واحد معنى البقرات ومعنى السنابل التي رآها فرعون في المنام .

وكان فرعون كما ذكر « محمد رشيد » صاحب مجلة « المنار » ، من ملوك العرب الرعاة وهم المعروفون في التاريخ بالهكسوس أو العمالقة الذين ملكوا مصر عدة قرون قبل ظهور ابراهيم عليه السلام وكانت مدتهم بمصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة والثامنة عشرة التي منها «أحمس» الذي طردهم من مصر ، وكان هذا الفرعون رجلا عاقلاً يسمع القول فيتبع أحسنه . ففكر ملياً في من يخرج بالرعية وما رعت من هذه الداهية الدهياء من ذوي الحكمة والعقل عندما تدهمهم سنون الجدب السبع العجاف ، ولا زالت هناك فسحة من الوقت كافية . اذ أمامهم سبع سنوات مخصبة ممرعة فلم يجد من يصلح لهذا الأمر غير هذا الفتى العبراني الغريب الذي لما تتجاوز سنه الثلاثين عاماً الماثل أمامه والذي تنبأ له



بما يكون في المستقبل وما سطره الله في لوح قضائه من الأمر المبروم المحتوم . وعلم كذلك ما يريد الله للعالم من خير وحسن مخرج من هذه المحنة الطاغية . فقال يوسف : « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » . فقال فرعون : « قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف . وخوّله السلطة التامة في أمره ونهيه في الرعية ، الا أن كرسي الملك يكون لفرعون . فشعر يوسف الصديق ، عليه السلام ، بثقل التبعة الملقاة على عاتقه وعرف أنه قد أصبح في مركز دقيق يصح أن يحسد عليه في زمن اليسر والرخاء ولا يحسد عليه في زمن الضيق والبلاء . ويجب أن يقوم بحزم وعزم على التوقي من السنين الطواحن مدة السنوات المخصبات ليخرج برعية فرعون الذي صدّق نبوءته بهذا الشأن . ووضع فيه ثقته التامة وبالغ في اكرامه والحفاوة به في أرض منزلته بعد خروجه من السجن الذي زج في أعماقه ظلماً وعداواناً . أراد أن يخرج بالرعية سالمة من العطب وهوة الهلاك الذريع المنتظر فوجه جهوده وحصرها في زراعة كل المساحة التي تثمر حنطة وتؤتي أكلها بإذن ربها . فزرعها مستعيناً بعبيد فرعون الذين لا يحصى لهم عدد وبأكثر الرعية التي تدين بالطاعة لفرعون وكان يوسف مع ذلك يتقاضى من الفلاحين خمس الغلة فيضيفه الى المخازن والأهراء واستمر على ذلك سبع سنوات دأباً ، كان يذر فيها الحنطة في سنبلها لئلا تتسرب اليها الرطوبة أو يتلفها السوس في المخازن العديدة التي ضاقت بها فخزنها في مخازن جديدة تسمى المطامير . وكانت مخازنه وأهراؤه مبثوثة في كل الأماكن من مدن مصر وحواضرها وأريافها عليها حفظة وأمناء من قبله كان يجمع فيها كل الغلال المحصود في دساكرها وضواحيها التي جابها جوباً وتفقدها شبراً شبراً في طول البلاد وعرضها بنفسه ومن اختار من أعوان للوقوف على أحوال الرعية بالتفصيل لمقاومة المحنة المنتظرة بكل ما ينبغي لها من حزم وحكمة وشدة مراس وتوق واحتراس . وكان الحب في سني الجدب لغذاء الناس والسنبل الذي خزن بما فيه من غلة بعد أن تستخلص منه الغلة غذاء للدواب .

ثم انصرمت سنوات الرخاء سريعاً كخلسة من خلسات السعادة ، وحلت السنة الأولى من سنوات الجوع العصيبة . اذ لم يفض النيل فيضانه السخي السابق فيروي الأراضي التي يمكن أن تزرع فتسد حاجة الشعب من الغلة التي كان يقتاتها عادة . ولجأت الرعية الى يوسف لتموينها بالأقوات لما نفد ما لديها من قوت مدخر . وكان الله تعالى مع عبده يوسف الصديق في بلاد الغربة يسدد خطاه وينجح مقصده في تنفيذ عمله الانساني العظيم الذي أحيا به نفوس البشر من معاصريه وخدم به فرعون وقومه من المصريين والعبرانيين وغيرهم من الأمم التي كانت تتاخم مصر في ذلك الحين . ووضع بذلك لمن بعده من الأمم نظاماً تتبعه وتسير عليه في مثل هذه الاحوال العصيبة . فعين بمعرفته أمناء مخازن وحفظة ممن كان يثق بهم ويطمئن الى أمانتهم وصدق اخلاصهم في خدمة الوطن وتنفيذ خطته الحكيمة المحكمة . فقاموا من قبلهم بما عهد اليهم خير قيام . ثم أقدم يوسف على عمل آخر يعد جديداً في ذلك العصر وهو احصاء السكان وتسنين الصغار . فقد أسند ، عليه السلام ، الى أعوان له هذه المهمة في حواضر مصر وأريافها وبواديها وذلك للاستعانة بذلك على تقدير فريضة كل طفل وطفلة من قوت يومه وكان عليهم رقيباً حسيباً . فهذا العمل أشبه ما يكون بنظام الاحصاء المتبع عندنا الآن ابان الحروب لتوزيع مواد التغذية الضرورية والأقمشة للشعب كما حصل في الحربين الكونيتين الماضيتين ، وذلك ليتمكن من إعطاء كل أسرة كفايتها اليومية من القمح .



وهكذا وجد فرعون في يوسف ، عليه السلام ، أميناً مخلصاً وخادماً للانسانية ، متفانياً في خدمتها وفي محبته الخير لكافة الرعية . ففوض اليه جميع الأمر ، وأفرده بكل السلطة التي له على الرعية •

بشرى أمين — الخرطوم

كتب مهداة

حظيت مكتبة القافلة بالمؤلفات الأدبية والثقافية والتربوية التالية :

■ « التقرير الذهبي » عن مدرسة التهذيب الاهلية لتحفيظ القرآن الكريم بالمدينة المنورة . وقد أبان التقرير الاهداف التي تسعى المدرسة جاهدة لتحقيقها وهي تحفيظ القرآن الكريم وتزويد طلابها بالعلوم الدينية التي من شأنها الإسهام في رفعة الاسلام واعلاء كلمة الله .

■ « مرآة العلوم » ، وهي مجلة سنوية جامعة تصدرها اللجنة الثقافية والفنية بأسرة المتفوقين بكلية العلوم في جامعة الرياض تحت اشراف الدكتور راشد المبارك . وهي تبحث في مختلف انواع العلوم .

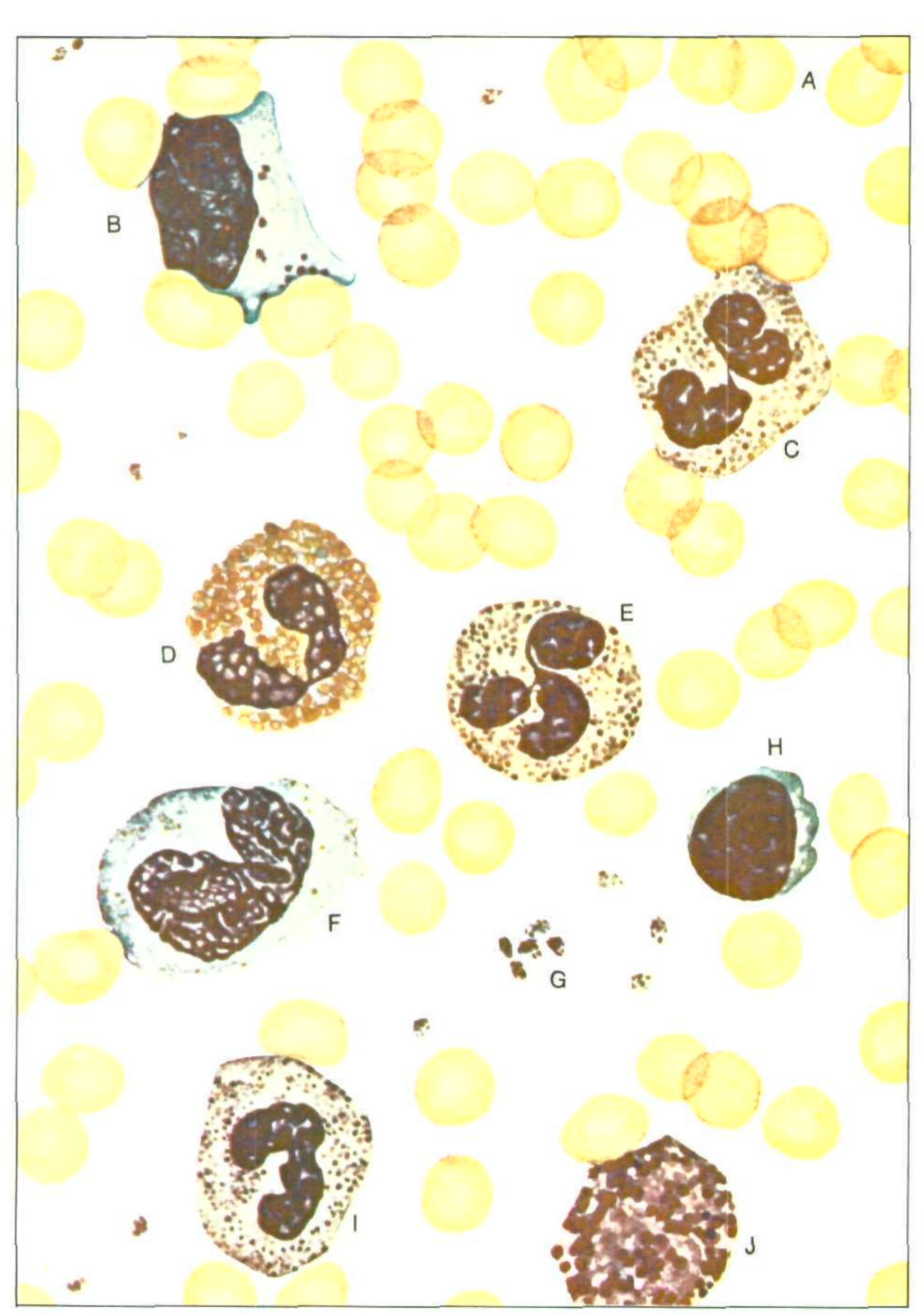
■ الجزء الأول من « ديوان العواد » للشاعر محمد حسن عواد وقد قسمه الى ثلاثة اقسام وهو يقع في ٢١١ صفحة وقد ضمنه صاحبه العديد من المقطوعات الشعرية الجميلة .

■ ضمن الجهود المستمرة لنادي الطائف الأدبي لتحقيق التراث والمشاركة بابرازه ، صدر مؤخراً كتاب «المختصر » من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر » . من تأليف الشيخ عبد الله مرداد أبي الخير واختصار وترتيب الاستاذين محمد سعيد العمودي واحمد علي . ويقع الكتاب في جزئين من الحجم الكبير ، وهو يعنى بالترجمة لحياة نخبة من علماء وأدباء وأديبات مكة المكرمة خلال الخمسمائة عام المنصرمة . ويظهر جهد المؤلف جلياً في تقصي أخبار من ترجم لهم بالدقة والشمول ، فهو يلقي الضوء على الشخصية مبرزاً خلفيتها الثقافية وحياتها الاجتماعية ، ويعرف بالمؤثرات العلمية في تكوين شخصيات كتابه . ويحوي الكتاب ترجمة مكثفة لأكثر من ستمائة شخصية اعتمد فيها على ٢٧ مرجعاً ، بعضها منشور والبعض الآخر لم يزل مخطوطاً ، ولعل من أهم ما يلفت النظر في هذا الكتاب ظاهرة العدد الكبير من النساء العالمات والأديبات اللائي زخرت بهن الحياة الفكرية العلمية في مكة المكرمة طوال تلك الفترة ، اذ لم تقصر بهن ظروفهن الاجتماعية عن تحصيل العلم والتتلمذ على ايدي كبار العلماء باخلاص وجدية تبهر المتتبع لتلك الحركة العلمية النشطة .

وقد صدّر الاستاذ عبد القدوس الانصاري لهذا الكتاب ، مشيراً الى جهد مؤلفه العالم الشيخ عبد الله ابو الخير والى الجهود التي بذلها الاديبان المحققان ، وعبر عن اهمية العمل الذي اضطلعا به بقوله « ومهمة تحقيق كتب التراث ووضعها في اطار حديث ، ووضع هوامش تعريفية ، أو توضيحية لبعض ما ورد فيها من تراجم ومعلومات ، هذه المهمة جد صعبة ، وتقتضي من ممارسها ان يتوشح بصبر عميق ، واستمرار متواصل ، اقتحمها المحققان اقتحام السباح الماهر للجة العويصة المحاطة بالأمواج الهائلة ، ونجحا في مهمتهما فوصلا الى ساحل السلامة والنجاة » .

■ كما صدر أيضاً عن نادي الطائف الأدبي مزيد من المؤلفات الثقافية منها « من شعر الثورة الفلسطينية » وهو ديوان للشاعر أحمد يوسف ، و « عالم البحار » للعقيد المتقاعد صالح بن محمد بن مشيلح الحربي يتناول فيه جزر فرسان وجيزان بالمملكة العربية السعودية من الناحية الجغرافية وما تضمه هذه الجزر من خيرات ، « والتراث العربي الإسلامي في الكوميديا الالهية » لدانتي الليجري وترجمة ياسر فتوى . و « موقفنا من الحضارة ضمن الإطار العالمي » وهي محاضرة ألقاها الاستاذ محمد كامل الخجا ، و « الاعلام والتنمية الوطنية في المملكة العربية السعودية » للدكتور سمير محمد حسين ، و « موقعنا من الاعراب في القرن الخامس عشر الهجري » وهي دراسة في تحديد اتجاه التغيير الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للدكتور غازي عبيد مدني ، و ديوان « الشاطىء والسراة » للشاعر محمود عارف ، ثم « الملف الثاني السنوي لنادي الطائف الأدبي » ويضم انتاج نخبة من الشباب السعودي الناشىء في الشعر والقصة والمقالة » ●

الـــدّم ... مَـــاهُـــو؟



شريحة دم مصبوغة ويظهر عليها الأنواع المختلفة من الخلايا الحمر والبيض ، وكذلك تظهر صفائح الدم المنتشرة في الشريحة (B)

يعتبر جسم الانســان من معجزات الخالق في خلقه . فقد أودع سبحانه وتعالى هــذا الجسم الذي أحسن تقويمه ما عجز عن فهمه بنو البشر رغم ما أحرزوه مــن تقدم علمي في دنيا الطب لم تشهد لها الانسانية مثيلاً من قبل . ومن هــذه المعجزات ذلك السائل الأحمر الذي يجري في عروقنا ، والذي لا حياة لنا بدونه.

يتكون الدم من جزئين رئيسيين هما « الخلايا الدموية — cells » و « البلازما — plasma » . وسنلقي فيما يلي نظرة على كل من هذين الجزئين الحيويين .

الخلايا الدمويَة أو الكريات الدمويَة

blood cells or corpuscles

يجرى في عروق جسم الانسان ملايين الخلايا ، سابحة في سائل الدم « البلازما » مدفوعة من القلب متجهة الى كل جزء من أجزاء الجسم داخل شبكة معقدة مــن الأوعية الدموية ، حاملة معها الغذاء ، والأكسجين ، ووسائل الدفاع عن الجسم من كل هجوم خارجي . وخلايا الــدم نوعان : حمر وبيض ، كما أن بالــدم صفائح دموية ، ولكل من الخلايا الدموية وظيفة خاصة تقوم بها .

خطا علم الطب خطوات سريعة في

وفي أنفسهم أفلا يعقلون
صدق الله العظيم

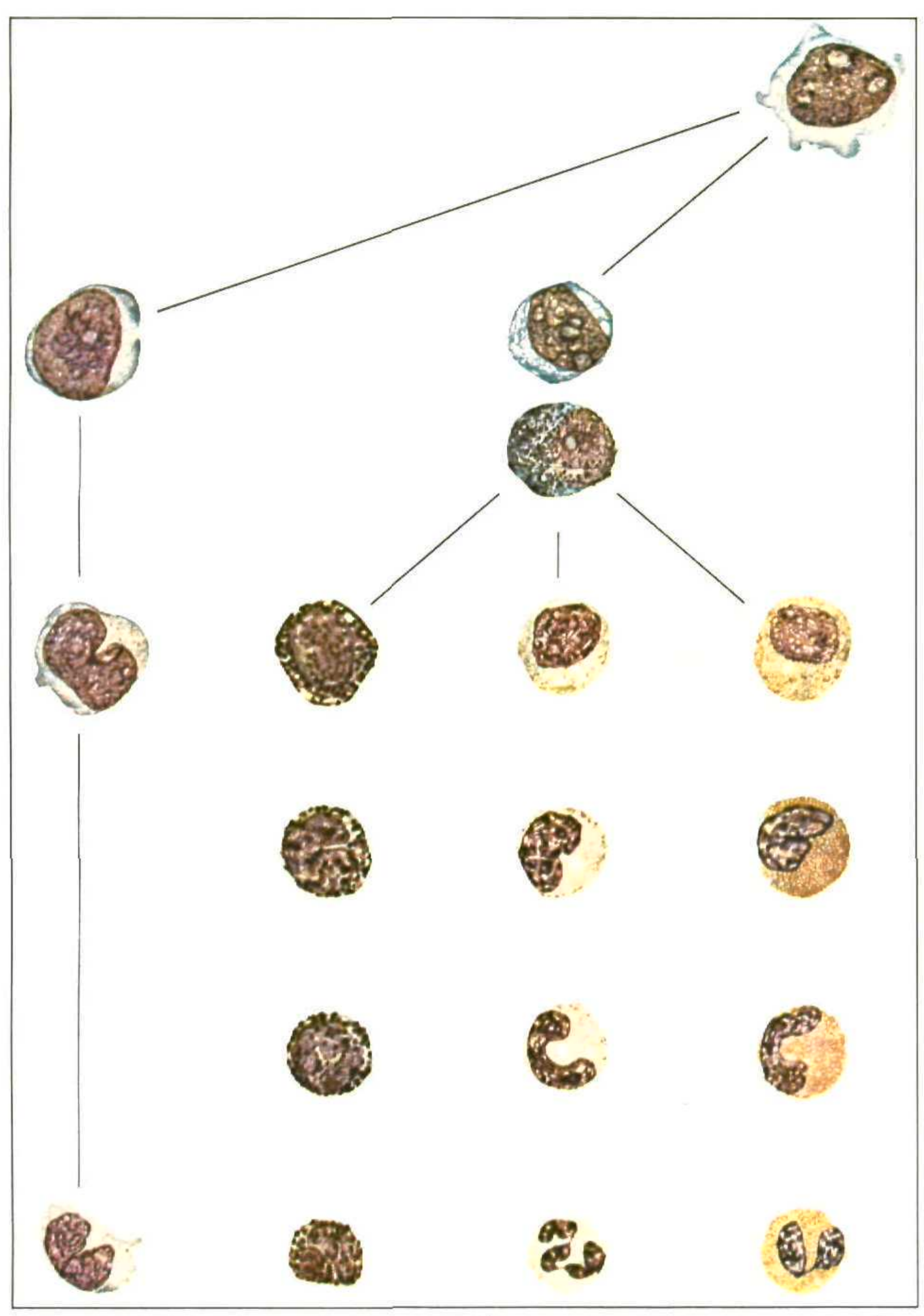
بقلم : الدكتور أحمد ملوح

معرفة خبايا هذه الخلايا . وكان لاكتشاف المجهر الضوئي ، ولا شك ، أثر كبير في دراسة هذه الخلايا وتحديد شكلها . وقد عزز هذا الاكتشاف ظهور الأصباغ الكيماوية — stains والأصباغ الحيوية . ثم جاء المجهر الألكتروني ليعطينا صورة دقيقة عن تركيب الخلايا وعملها ، بالاضافة الى امكان زرع بعض هذه الخلايا الدموية وملاحظة مراحل نموها وتطورها تحت مختلف المؤثرات الخارجية. ومن خلال هذه الدراسات ، تمكن العلم من اثبات أن جميع خلايا الدم أو الغالبية العظمى منها تخرج من خلية واحدة هي « الخلية الأم — stem cell »، وتتكون هذه الخلية في نخاع العظم . ولكنها تحت مؤثرات مختلفة ، تبدأ في الانقسام ، ثم تأخذ طريقاً معيناً لتنتج خلية أو كرية دم حمراء ، أو طريقاً أخرى لتنتج خلية أو كرية دم بيضاء ، أو طريقاً ثالثاً لتنتج صفائح الدم — platelets .

الخلايا أو الكريات الحمر

Red Blood Cells

يتراوح عدد هذه الخلايا في جسم الرجل البالغ ، بين ٤٥٠٠٠٠٠ و ٦٢٠٠٠٠٠ خلية في كل سم٣ من الدم . أما في جسم المرأة فيتراوح عددها



تتكون جميع خلايا الدم في نخاع العظم من خلية أم واحدة ، تنقسم وتنضج لتكون الخلايا البيض والحمر وصفائح الدم . والخلايا البيض ليمفاوية ، أو معتدلة التفاعل ، أو حمضية أو قاعدية .



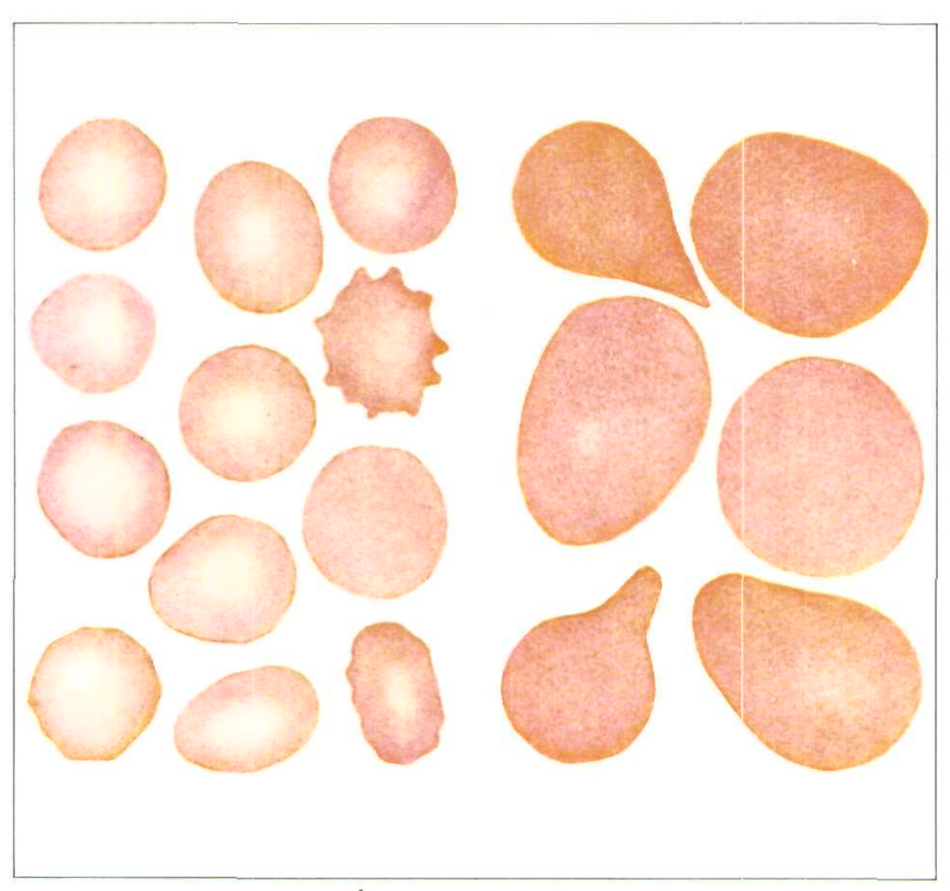
بين ٤٢٠٠٠٠٠ و ٥٤٠٠٠٠٠ خلية في كل سم٣ من الدم . فلو عرفنا أن معدل ما يحتوى عليه جسم الرجل من الدم هو خمسة لترات لتبين لنا العدد الهائل الذي يحتوى عليه جسم الانسان من هذه الخلايا الدمــوية .

وتتكون هذه الخلايا ، كما أسلفنا ، في نخاع العظم من « الخلية الأم — stem cell » وبعد نضوجها ، تخرج الى الدم لتقوم بعملها . وهي تعيش في الجسم نحو ١٢٠ يوماً ، ثم تموت ، ليعوض نخاع العظم بدلاً عنهــا . وفي بعض الأمراض لا تستطيع هذه الخلايا أن تعيش أكثر من بضعة أيام .

وكرة الدم الحمراء مسطحة مــن الجانبين ، وتظهر على الشريحة الملونة كدائرة تتوسطها بقعة بيضاء محاطة بدائرة حمراء هي المادة الأساسية أو ما تدعى بـ « الهيموجلوبين — hemoglobin » . وقد تطرأ تغيرات على شكل هذه الكرية عند حدوث بعض الأمراض . ففي حال مرض فقر الدم الناتج عن نقص في الحديد ، مثلاً ، يصغر حجمها . فتكبر البقعة البيضاء في وسطها على حساب دائرة الهيموجلوبين . وفي حال « مرض الخلايا المنجلية — sickle cell » تأخذ الخلايا شكل المنجل أحياناً ، في حين تصبح هذه الخلايا في بعض الأمراض ملأى بالهيموجلوبين دون ظهور البقعة البيضاء في وسطها .

ولعل من أهم مكونات الكرية الحمراء ، مادة الهيموجلوبين التي تكسب الدم حمرته وتتحد هذه المادة الحيوية بالأكسجين عندما تصل الى الرئتين ثم توزعه على كل خلية من خلايا الجسم ، ثم تعود بثاني أكسيد الكربون حيث تتخلص منه في الرئتين ، ومن هنا يتضح لنا أنه بدون هذه المادة تستحيل الحياة . واذا ما نقصت كمية الهيموجلوبين في الجسم فان الانســان يصاب بمرض فقر الدم .

أما اذا ما زاد عدد الكريات الحمر وزادت كمية الهيموجلوبين على الحــد المعقول ، فانه يصعب على هذه الكريات



شريحة تبين الفرق في الحجم بين خلايا حمر أخذت من انسان سليم وآخر مصاب بفقر الدم الخبيث — Peruicions Anemia .



التحرك في سائل الدم « البلازما » لتزاحمها ، الأمر الذي قد يعرض المريض لمخاطر كثيــرة .

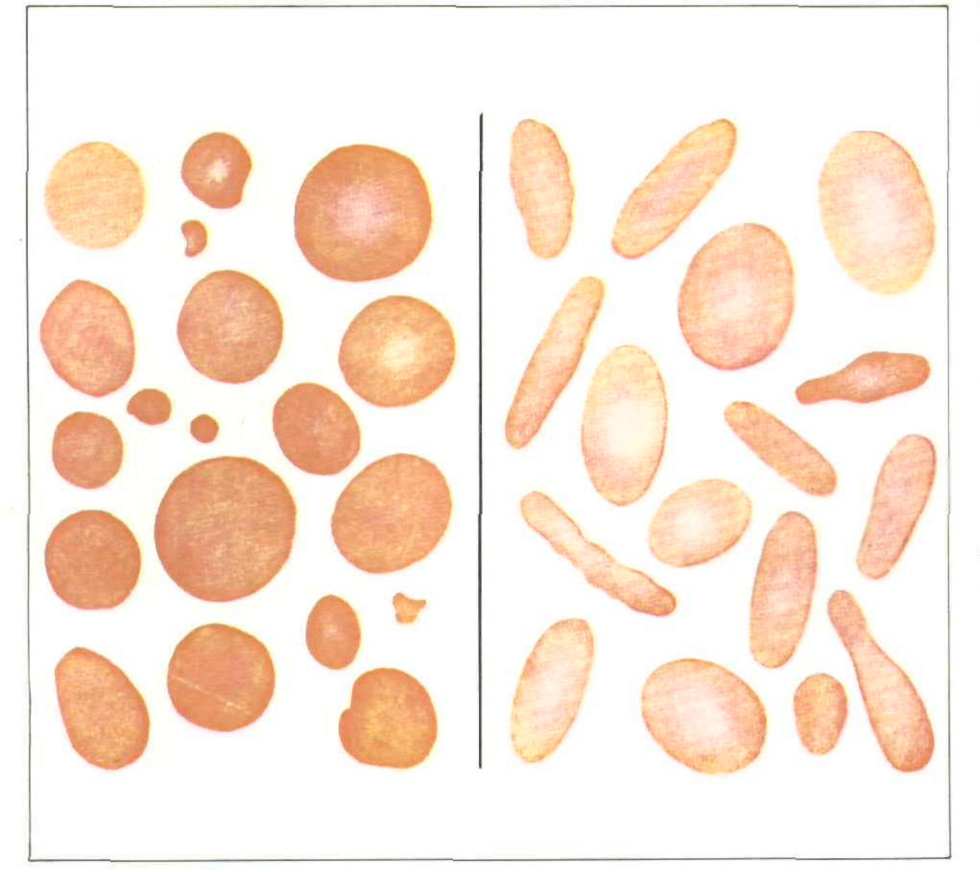
ومن هنا تظهر حكمة الخالق جلت قدرته بأن جعل هناك توازناً بين نسبة ما يموت من هذه الخلايا ونسبة ما يولد منها. فعندما تموت الكرية الحمراء فان جدارها ينكسر ، وتنقسم مادة الهيموجلوبين الى مكوناتها حيث يعاد استعمال الحـــديد والبروتين — globin في الجسم . أما ما تبقى وهي « حمرة الصفراء — bilirubin فيتخلص منهـــا الجسم .

الخلايـا أو الكـريات البيـض

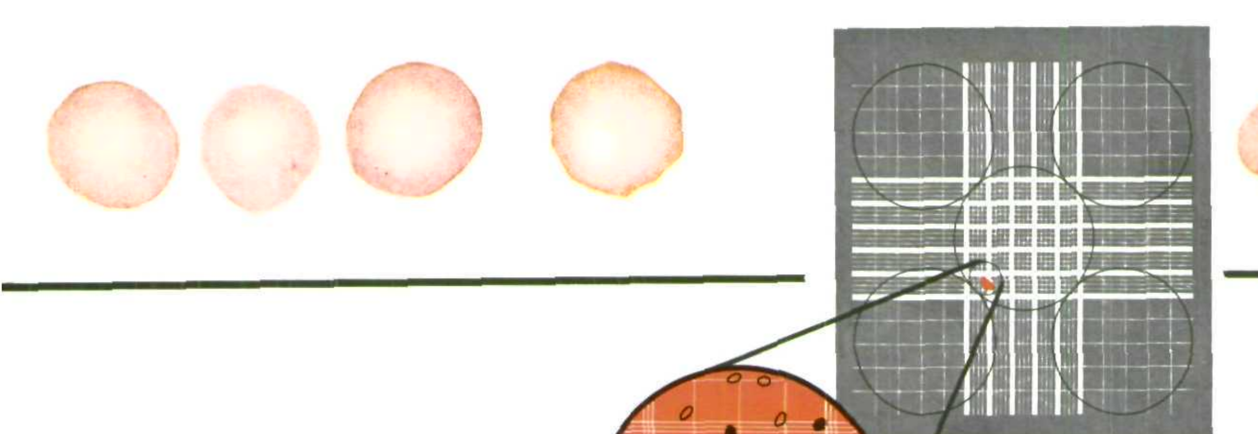
white blood cells

يتراوح عدد الكريات البيض في جسم الانسان بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ خلية في كل سم٣ من الدم ، وهي توجد على أنواع عدة ، ولكل نوع منها وظيفته الخاصة به . غير أن بعض هذه الوظائف ما زال سراً غامضاً لم يكشف النقاب عنه . وتختلف أنواع الكريات في الشكل الخارجي وفي النواة وكذلك في تلونها بصبغة معينة . ومع ذلك فقد عرف العلم النوع الأول من هذه الخلايا المميز بنواة مقسمة وصبغة معتدلة لا حمضية ولا قاعدية .. عرف الوظيفة المهمة التي يقوم بهـــا هـذا النوع من الخلايا وهو مهاجمة كل جسم غريب أو جرثومة ، ثم ابتلاعهـــا وهضمها . وبذلك تعتبر هذه الخلايا بمثابة خط الدفاع الأول عن الجسم ضد هـــذه الجراثيم .

أما النوع الثاني ، وهو الخـــلايا الليمفاوية ، فقد عجز العلم عن كشف النقاب عن طبيعة عملها مدة طويلة . الا أنه قد تبين في السنوات القليلة الماضية ، أن الحياة بغير هذه الخلايا تكون مستحيلة. فهي خط دفاع قوي ضد كل جرثومـــة تحاول التغلغل في الجسم ، فهي التي تقوم بصنع الأجسام المضادة — antibody للدفاع عن الجسم . وتتضح أهمية هذه الخلايا في الدفاع عن الجسم ضـــد « الفيروسات — virusi » والطحالب



شريحتان من الدم تظهران مرض الدم الكروي Spherocytosis ، وهو مرض وراثي ، ومرض الدم البيضوي — Ovalocytosis وهو وراثي أيضاً .



رسم توضيحي يمثل عملية عد خلايا الدم في جسم الانسان .

fungi » وكذلك ضد جرثومة السل وغيرها، من الأجسام الغـــريبة .

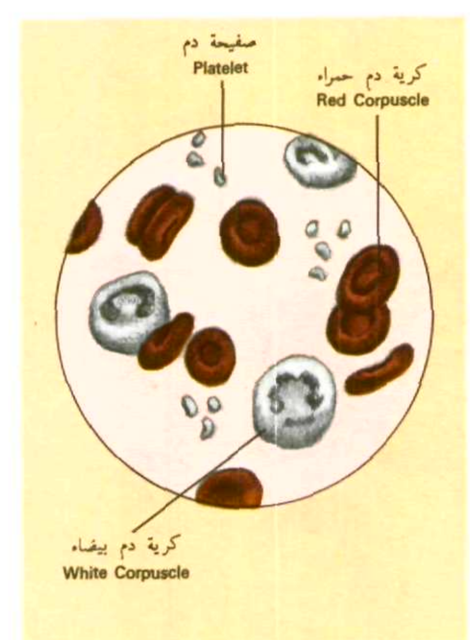
ولعل من أغرب هـــذه الخلايا الليمفاوية ما يسمى بـ « الخلايا ذات الذاكرة — memory cells » . فهذا النوع من الخلايا يحتفظ بذاكرة غريبة عندما يتعرض الجسم لشيء غريب .. فاذا ما حدث وتعرض الجسم لأشياء غريبة فان هذه الخلايا تقوم بتذكير الجسم بذلك المعتدي استعداداً لمواجهته والتصدي لـــه .

صفـــائح الـــدّم

Platelets

انها ليست خلايا بالمعنى الصحيح ، فهي لا تحتوي على نواة . وتظهر عـــلى شريحة الدم الملونة كحبيبات رمل دقيقة . وقد كان الاعتقاد السائد لفترة من الزمن ، أنه لا عمل لهذه الصفائح ، وما هي إلا بقايا خلايا أو أوضار ناتجة عن تحضير الشريحة للفحص .

ولهذه الصفائح دور أساسي في تخثر الدم ووقف النزيف . وبدون هذه الصفائح أو في عدم توفر العدد الكافي منها ، فان أي جرح صغير يصاب به الجسم قد يظل ينزف حتى الموت ، أو ربما يحدث نزيف في جزء حيوي كالدماغ مثلاً ، فيودي بحياة الانسان . ويتراوح عدد هـــذه الصفائح بين ١٥٠٠٠٠ و ٤٥٠٠٠٠ في كل سم٣ . وقد ينقص هذا العدد نتيجة لزيادة استهلاكه أو لنقص انتاجه في نخاع العظم ، وكلتا الحالتين قد تحدث في كثير من الأمراض .



رسم يمثل كريات الدم الحمر والبيض وكذلك صفائح الدم التي يتكون منها دم الانسان .

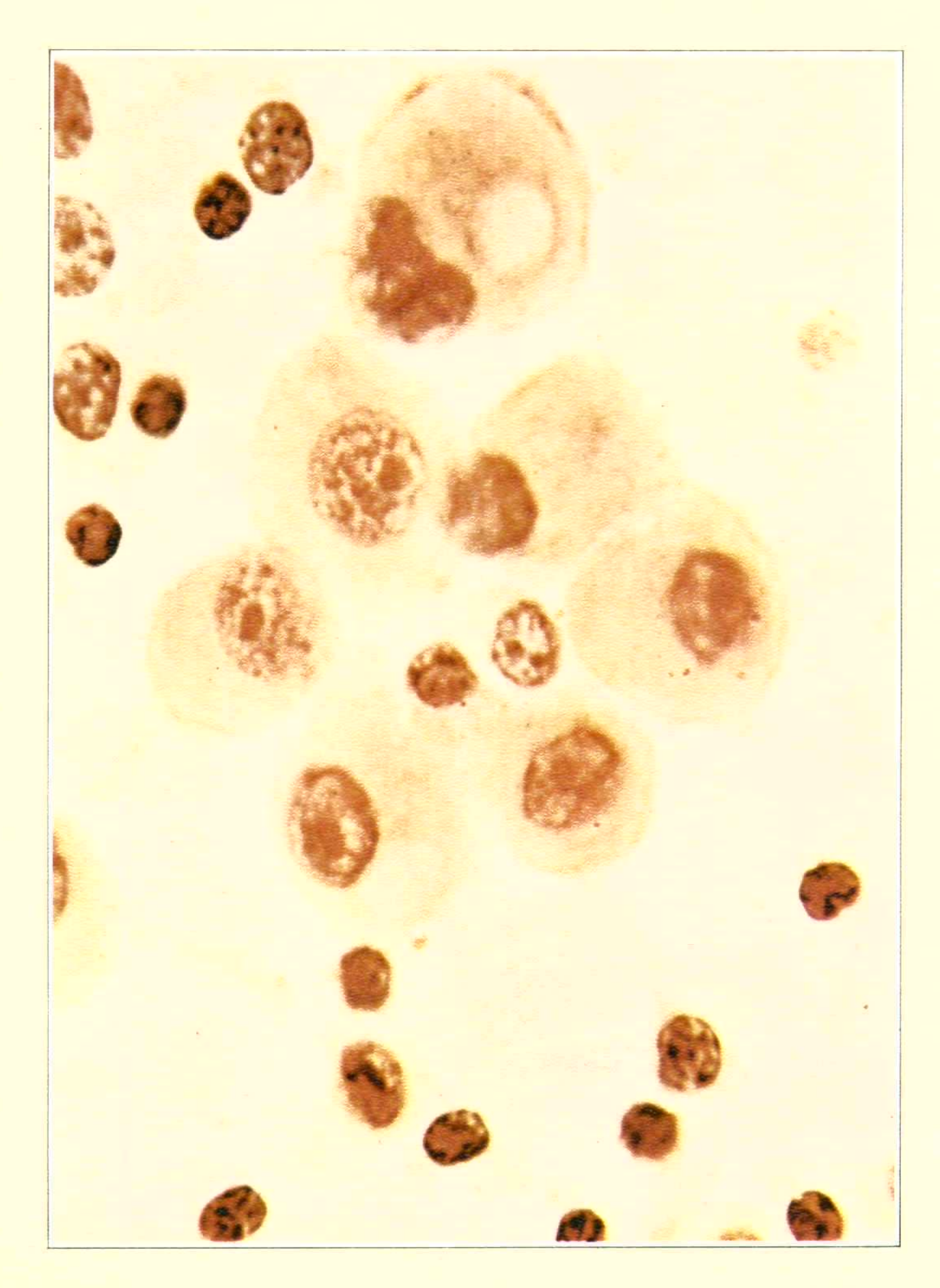
السّـــائل الــدّموي « البلازما »

وهو السائل الذي يجري فيه الملايين من الكريات والصفائح الدموية . كما أنه يحتوي على نسب معينة من المواد البروتينية والمعادن والأملاح . فاذا ما زادت أو نقصت هذه النسب ، تعرض الجسم للخطر . وفي هذا السائل تجري أملاح الصوديـــوم والبوتاسيوم ، والكلوريد ، والمغنسيوم والكالسيوم ، والنحاس ، والحديد ، كما تجري فيه أيضاً البروتينات المسؤولة عن تغذية الجسم وحمايته ، والمواد الدهنيـــة والنشوية الى جانب فضلات الجسم ، لتصل الى مكان عملها أو مكان افرازها .

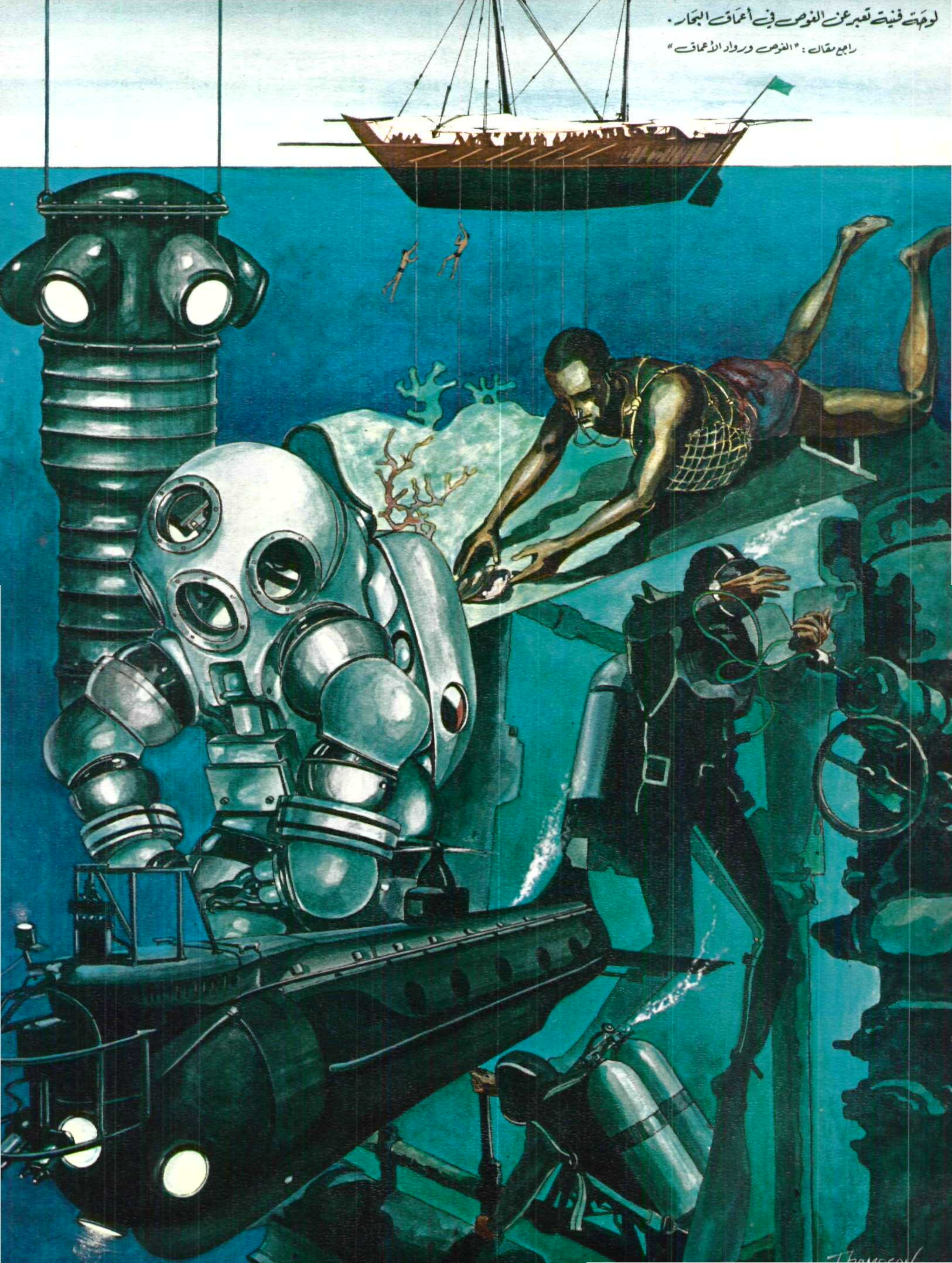
كذلك يحتوي هذا السائل على جميـــع العوامل الضرورية لتخثر الدم عند حدوث جرح أو في حال اجراء عملية جراحية ، كما أن الأدوية التي يتعاطاها المريض تتخذ طريقها الى الأجـــزاء المعتلة من الجسم بواسطة هذا السائل ، وكذلك الهرمونات والانزيمات .

وبعد ، هذه لمحات سريعة عن أهمية هذا السائل لجسم الانسان ، مع العلم أن هناك الكثير من أسرار هذا السائل ما زالت غامضة لم يكشف النقاب عنها ، بعد . ولله في خلقـــه شؤون ●

د . أحمـــد ملوح
الولايات المتحدة الأمريكية



صورة مكبرة لعينة من خلايا الدم .



لوحة فنية تعبر عن الغوص في أعماق البحار.

راجع مقال: "الغوص ورواد الأعماق"